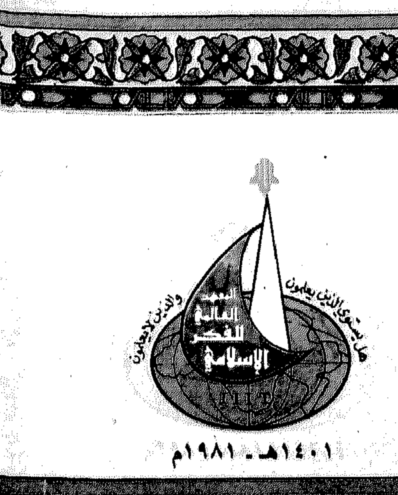
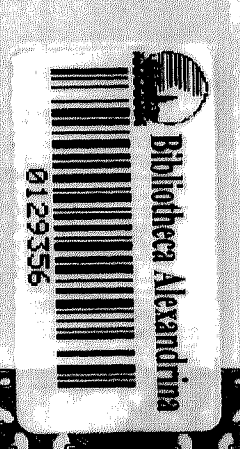


المعهد العالمي للفكر الإسلامي

سلسلة قضايا الفكر الاسلامي (٦)

حول تشكيل العقل المسلم

عماد الدين خليل



عماد الدين خليل

* من مواليد الموصل - العراق سنة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م.
* حصل على إجازة الآداب بمرتبة الشرف من جامعة بغداد سنة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.
* حصل على الماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة بغداد سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
* عمل مشرفًا على المكتبة المركزية في جامعة الموصل ١٣٨٦هـ - ١٣٨٧هـ (١٩٦٦ - ١٩٦٧م).
* نال درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي بمرتبة الشرف الأولى من جامعة عين شمس القاهرة سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
* عمل معيدًا فمدرسًا فأستاذًا مساعدًا للتاريخ الإسلامي ومناهج البحث وفلسفة التاريخ في كلية الآداب - جامعة الموصل من سنة ١٣٨٧ إلى ١٣٩٧هـ (١٩٦٧-١٩٧٧م).
* عمل رئيسًا لقسم التراث ومديرًا لمكتبة المتحف الحضاري وباحثًا علميًا في المديرية العامة للآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في العراق (الموصل) ١٣٩٧ - ١٤٠٧هـ (١٩٧٧-١٩٨٧).
* يعمل الان أستاذًا للتاريخ الإسلامي ومناهج البحث وفلسفة التاريخ في كلية الآداب - جامعة صلاح الدين أربيل - العراق.
* له العديد من المؤلفات الفكرية والثقافية والأدبية والتاريخية التي عمرت بها المكتبة العربية خلال العقدين الماضيين.
* يعتبر من المحاضرين المرموقين الذين تسعى لاستضافتهم الجامعات والمؤسسات العلمية والتربوية العربية وغيرها.
* شارك في عدد من الأعمال العلمية للمنظمة العربية للتربية والثقافة (الأليسكو) ومكتب التربية العربي لدول الخليج.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين



اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)

العلق ١ ـ ٥

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)

النحل ٧٨

حَولَ
تَشكِيل العَقل المُسلِم

الطبعة الأولى: كتاب الأمة ـــ قطر

(١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)

الطبعة الثانية: بغداد

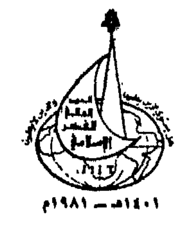
(١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م)

الطبعة الثالثة: الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ـــ الكويت

١٤١٠هـ / ١٩٨٩م

الطبعة الرابعة منقحة ومزيدة

(١٤١٢هـ/١٩٩١م)



المعهد العالمي للفكر الإسلامي

هيرندن ـ فيرجينيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية

حول تشكيل العقل المسلم

عماد الدين خليل

سلسلة قضايا الفكر الاسلامي (٦)

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

Khalīl, Imād al Dīn. 1939 (1358)-
Ḥawla tashkīl al 'aql al Muslim / 'Imād al Dīn Khalīl.
p.m.— *(Silsilat qaḍāyā al fikr al Islāmī;* 6)
Includes bibliographical references and index.
Romanized record.
ISBN 0-912463-77-5
1. Islamic countries—Civilization. 2. Islam—20th century.
3. Muslims—Intellectual life—20th century. I. Title.
II. Series: *Silsilat qaḍāyā al fikr al Islāmī;* 6.
DS35.62.K48 1990 Orien Arab
909'.097671—dc20 90-5161
CIP
NE

Printed in the United States of America
by International Graphics Printing Services
4411 41st Street
Brentwood, Maryland 20722 U.S.A.
Tel. (301) 779-7774 Fax (301) 779-0570

الفهـرسـس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الخاتمة

تصدير

الحمد لله نستغفره ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. ونصلي ونسلّم على سيدنا وحبيبنا عبدالله ورسوله وصفيّه وخليله محمد وعلى آله وصحبه.. وبعد،

فإن من أبرز الإصابات التي منيت هذه الأمّة بها في وقت مبكّر من تاريخها الإصابات الفكريّة التي تراكمت آثارها حتى جعلت منها أزمة أربكت العقل المسلم وشلّت فعاليته، واستدرجته إلى دركات الحيرة والاضطراب والقلق الفكريّ ـــ التي كان الإيمان والتوحيد والرؤية الإسلاميّة النقيّة وقد أنقذته منها، ونأت به عن شراكها.

لقد استطاع التصوّر الإسلامي السليم، والإيمان العميق بأركانه المتعددة وترابطها، والتوحيد الخالص أن يوجد عقلاً مسلمًا قادرًا معطاءً، استطاع أن يتحوَّل بسرعة خارقة من الأميّة والجاهليّة إلى نور العلم وإشراقات التوحيد عبر قراءتين متدبِّرتين متلازمتين: قراءةٍ في الكون والوجود لاكتشاف إسرار الخلق، وعلاقات الموجودات،

وأشكال الظواهر وخصائصها وسننها وإدراك القدرة الإلهية المدبِّرة لها للوصول إلى توحيد الربوبيَّة وتوحيد الصفات المحرّرين للوجدان الإنساني من كل ضغط، المطلقين لطاقات العقل الإنساني في الوجود المهيّئين له للاستفادة من قوانين الاستخلاف والتسخير.

وقراءة ثانية في الكتاب المسطور والوحي المنــزل المنشور للوصول إلى توحيد الألوهية من خلال التدبُّر والتفهم لتجليّات القدرة الإلهيّة البارزة في نشاط الظواهر وحركاتها ووجودها وتفاعلاتهم والسنن والقوانين التي تحكم ذلك. وكلّها صنع الله الذي أتقن كل شيء، والانطلاق نحو حفظ الأمانة، والقيام بمهمة الخلافة واستعمال قوانين التسخير لتحقيق حالة «الشهود الحضاري» و «إخراج الأمة الوسط»، وبناء «الأمَّة الخيِّرة» .

وهنا يصبح النشاط الإنساني المهتدي بالقراءتين ــ بجملته ــ نشاطًا محقِّقًا لمقاصد الشارع وغايات الحق من الخلق.

أمّا حين تُعطَّل القراءتان فإنَّ ذلك يعني إعدام الكون ودماره وحلول ساعته و قيام قيامته. وحين تعطَّل إحداهما فإن ذلك يعني إعلاماً لشطر مقوِّمات الحياة، وإهدارًا لشطر من شطري الوجود الإنساني، بل الحياة كلها.

ولقد أحسن الصدر الأول القراءتين وأتقنهما فوجدت «الأمّة المسلمة» المتميزة عن سائر الأمم بالقراءتين قراءة الرواية وقراءة الدراية فاستمسكت بالوحي وأعملت العقل في إدراكه وفهمه، وأطلقت

كل وسائل الإدراك الإنساني تستقرىء الوجود، وتكتشف السنن، وتتبيّن العلاقات فتحققت لها الريادة والشهادة والخيريّة والقيادة. وبقيت تتمتع بذلك ردحًا من الزمان حتى طال عليها الأمد، وقست القلوب فاستوردت من الأمم الأخرى التي لم تحسن القراءة فلم تتعلّمْ غير ظاهر من الحياة الدنيا معركة «النقل والعقل»، فاختلت قراءتها، واضطرب فهمها، وتخلّف إدراكها، وبدأت مسيرة تراجعها.

وقد كانت هذه الأمة المرحومة في غنى عن هذا، فهي قضيّة من تلك القضايا التي حسمتها القراءة الشاملة المتدبِّرة في وقت مبكّر من تاريخنا. وقدّر الله وما شاء فعل.

إن هذه الأمّة وقد تكالبت عليها الأمم، وتداعت عليها الكوارث أحوج ما تكون اليوم إلى القراءتين لتستأنف مسيرتها وليصلح آخرها بما صلح به أولها، ولن تستطيع ذلك ما لم تعد تشكيل عقلها، وبناء عالم أفكارها، وترميم نسقها الثقافي. وأن العقل الذي لا يتحقق بالرؤية الشاملة، لا يمكنه إعادة الترتيب لأولويّاته ومهّامه، ولا يستطيع القيام بالبرمجة والتخطيط، وإتقان دراسة المقدِّمات والأسباب للوصول إلى أفضل النتائج.

وحين قرّر المعهد فتح ملف قضيّة «العقل المسلم» حاول أن يضم إلى هذا الملف أفضل ثمرات الأوراق التي دبجتها أقلام الكتاب المسلمين المدركين لأزمة الأمة في عالم أفكارها وكان من بين أهم الأعمال التي تم اختيار كتاب أخينا الأستاذ الدكتور عماد الدين

خليل مستشار المعهد «حول تشكيل العقل المسْلم» الذي كان قد نشر للمرة الأولى ضمن سلسلة كتاب «الأمة» في قطر سنة (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ثم أعاد الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابيّة في الكويت نشره سنة (١٤١٠هـ / ١٩٨٩م).

وقد عهد المعهد للأستاذ المؤلف بإعادة النظر في الكتاب وإدخال ما يراه من تعديلات لإعادة إصداره فتفضل بذلك مشكورًا. وبالنظر لاهميّة مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة، وكونها بمثابة باب تمهيدي يشكل إضافة مهمة لمضامينه فقد رؤى الاحتفاظ بها ليشكل الكتاب بجملته حلقة هامّة من حلقات المعالجة الكثيرة المطلوبة لهذه الأزمة التي تتوقف على معالجتها، وإنقاذ العقل المسلم، انطلاقة مسيرة استئناف الحياة الإسلامية القرآنية السليمة.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. طه جابر العلواني

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية
جمادى الآخرة ١٤١٢هـ
ديسمبر ١٩٩١م

تقديم الطبعة الأولى

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وبعد: فقد كنا طرحنا في تقديمنا لكتاب الأمة الأول «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية» للشيخ محمد الغزالي، أننا نرى من أولى اهتماماتنا، المساهمة في تحقيق الوعي الثقافي الإسلامي، وإعادة بناء عالم الأفكار، والدعوة إلى وضع ملامح تخطيط ثقافي إسلامي (استراتيجية ثقافية) يُعيد بناء التصاميم الذهنية الإسلامية ويوفر الطاقات ويهندسها، ويضعها في المجال المُجدي، لتنتهي بذلك مرحلة الرسم بالفراغ، التي ورثناها عن مراحل التخلف، وساهم في تكريسها الغزو الثقافي، الذي لا نزال نُعاني من آثاره على أكثر المستويات، بالرغم من الدعاوى الكثيرة التي تريد أن تُثبت عكس ذلك، ويبقى المطلوب دائمًا مزيدًا من إلقاء الأضواء الإضافية على جوانب المشكلة الثقافية، للوصول إلى إعادة صياغة وتشكيل العقل

المسلم، أو إعادة ترتيب العقل العام لِمُسْلِمِ اليوم، وتخليصه من النظرات الجزئية المتناثرة، وعجزه عن مواجهة مشكلاته وتحدياته الداخلية منها والخارجية على حد سواء، على ضوء رؤية إسلامية ذات إخلاص وصواب، ودراية وفقه، يتحقق فيها طرفا المعادلة التي استحال علينا حلها طيلة عصر التخلف والسقوط الحضاري والتي استعاذ منها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث قال: اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر وعجز التقي.

لذلك كان لابد أن نحل المعادلة فنصل إلى مرحلة جلد التقي وعجز الفاجر.. بعيدًا عن المواقف والتصرفات الإنفعالية الخطابية، التي تحرك العاطفة ولا ترشد العقل، وتعتمد التهويل والمبالغة، ولا تخدم القضية الإسلامية، بل على العكس قد تساهم مساهمة سلبية غير مقصودة في تخلف المسلمين.

إن محاولة إعادة ترتيب العقل المسلم، أو إعادة تشكيله أو صياغته، ومنحه القدرة على التخلص من بعض القيود والأسوار، قضية تجد في طريقها الكثير من الصعوبات والركام الذي قد يلبس الأمور ويغيب الرؤية الصحيحة للأشياء، والقدرة على إبصارها ومن ثم تصنيفها، إنها تتعلق بصميم المشكلة الثقافية التي نعاني منها بعد أن زرعت في نفوسنا القابلية لها وتواضعت عليها القرون.

لذلك كان لابد من المعالجة المنهجية الحكيمة المتأنية الناضجة، ولابد من تناول القضية من أكثر من طرف وإلقاء أكثر من ضوء

إضافي عليها واستعمال أكثر من وسيلة، والصبر والاحتمال لما يمكن أن يحدث من خطأ في المقايسة والموازنة، ومن عجز في الإبصار وعثرات على الطريق.

ولكن مع ذلك تبقى القضية ملحة بعد هذا الواقع الثقافي الهجين الذي انتهينا إليه، والذي حمل إلينا ما يفيد وما لا يفيد، ما لنا وما ليس لنا، واختلطت فيه المفاهيم.

لقد أصبحت الحاجة ملحة لعملية التنقية الثقافية، وأصبحنا أحوج من أي وقت مضى إلى الذين يحملون عقل المهندس، ومبضع الطبيب، وحرقة الوالدة، على مستوى الفكر والثقافة، ليقوم بعملية الإخلاء والإملاء، أو عملية الهدم المسبوقة بمخطط واضح ومدروس لعملية البناء لأن بعض الناس يحسنون الهدم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ولأنه يتناسب مع طبائعهم وانفعالاتهم واستعجالهم لكنهم يعجزون ولا يحتملون البناء، لأن البناء يستدعي التأني والصبر والزمن والنضج.. وكلها متطلبات لا تقتضيها عملية الهدم. وتبقى المشكلة في بناء العقلية القادرة على البناء وفي تصويب مسار هذه القدرة.

ونحن نعترف أن ما أصاب العقل المسلم من صدوع ورضوض وكسور وتقطيع، فصده عن المضي إلى غايته، وحال بينه وبين أداء رسالته، لايمكن أن يعالج بكتاب أو مقال أو محاضرة أو بحث، وإنما يتعلق الموضوع بصميم المشكلة الثقافية، والمناخ الثقافي أو عالم

الأفكار، الذي يشكل المحضن الصحي والضروري لإعادة تشكيل العقل وتربيته ومنحه القدرة على العطاء والحماية من الانكسار.

من هنا نعاود القول:

بأنه لابد من أن تأتي المعالجة طويلة النفس، دائبة ومستمرة، تعطي من الزمن والمحاولة ما تستحقه الأمراض المزمنة من الصبر والأناة وبراعة المعالجة، ورسم المنهج الصحيح وتعميق أبعاده، ومتابعة ذلك بأكثر من وسيلة ليتمثله الفرد المسلم فتحصل النقلة المطلوبة ونسترد المواقع المفقودة، ولا نخدع أنفسنا، أو نخادع بالفجر الكاذب الذي يعمي على كثير منا حقيقة النور، وسلامة الرؤية في تحقيق نصر موهوم.

إن العقل الذي لايتحقق بالرؤية الشمولية الكاملة لا يمكنه الترتيب لانعدام الرؤية الدقيقة لسلم المشكلات التي تواجه عالم المسلمين، وبالتالي فلا يمكن له القيام بعملية «البرمجة»، ولا يمتلك القدرة على التصنيف وإعطاء كل مشكلة علامتها ومكانها الذي تستحق والطاقة التي تحتاج، كما أنه لا يمتلك المقدرة على التمييز بين آثار المشكلات التي تنجم عنها وأسبابها التي أوجدتها، وأن معالجة الآثار تعني مزيدًا من الارتكاس ومزيدًا من هدر الطاقات فلابد من اكتشاف الأسباب والعلل ومعالجة هذه الأسباب، وإلى أي مدى يمكن أن يكون الكثير من المشكلات الفرعية أو الجزئية مظهرًا من مظاهر المشكلة العامة، وأن هذه المشكلات الفرعية سوف تغيب

عن عالم المسلمين إذا أحسنا تحديد أبعاد المشكلة العامة وبالتالي أحسنا معالجتها.

إن دعوتنا إلى إعادة صياغة العقل المسلم أو الوصول إلى العقل المرتب لمسلم اليوم هي دعوة مزدوجة في حقيقة الأمر أو ذات بعدين رئيسين:

(١) تصحيح التصور: وذلك بالقدرة على رؤية الخطوط الإسلامية والمسارات الإسلامية متواصلة متكاملة متوازية لا يصطدم بعضها بالآخر لتأخذ بعدها بضبط وربط.. والقدرة على تكوين العقلية التي تمتلك أبجديات الثقافة الإسلامية فتحسن القراءة الإسلامية التي تستطيع من خلالها أن تفسر الظواهر الاجتماعية تفسيرًا إسلاميًا، وتصدر عن تصور شامل للكون والحياة والإنسان، ولا تقع فريسة للتفسيرات غير الإسلامية، كما أنها لا تبقى مهوشة غير قادرة على التوازن والاعتدال.

(٢) تخليص العقل: من التركيز على النظرة الجزئية، لأن التركيز عليها يؤدي إلى آفات عقلية ليس أقلها العجز والانحسار كما ويؤدي إلى تضخيم دور بعض الفروع والجزئيات الأمر الذي يقتل الإبداع، ويصيب قدرة العطاء عند الإنسان، ويوقع في التقليد ويحرم صاحبه من الإفادة من جهود الآخرين سواء أكان ذلك بالتعامل مع التراث أم بالقدرة على استلهام الكتاب والسنة لمواجهته حاجات العصر المتجددة.

ونحن لا نريد هنا بمطاردتنا لأصحاب النظرة الجزئية المولعين بالتبعيض، الملتزمين بالأبعاض، أن ندعو إلى تسطيح المعرفة العلمية وتمديدها في عصر التخصصات الجزئية والعجز الفردي عن الاستيعاب والأداء الفردي الشامل والمجدي.

وإنما الذي نريد له أن يكون واضحًا أن الكلام هنا في مجال البنية الثقافية، وهي أمر آخر لا تشكل المعرفة العلمية الأكاديمية إلاّ حيزًا بسيطًا منه على ضرورته وأهميته.

لذلك نرى أنه لابد من ثقافة عامة، ونظرة شمولية وعقل مرتب متوازن قادر على النظرة العامة إلى جانب التخصص العلمي ببعض الجوانب.. فالعلم شيء والثقافة التي تستطيع توظيف هذا العلم والإفادة منه شيء آخر.

ويمكن لنا أن نأتي بمثال على ذلك:

إن العالم اليهودي الذي اخترع مادة متفجرة جاءت كثمرة لتخصصه العلمي، كان إلى جانب هذا التخصص العلمي الدقيق يتمتع بثقافة توراتية ورؤية دينية توجه ملكاته وتوظف تخصصاته للعمل على تحقيقها وذلك في الوصول إلى أرض الميعاد وإعادة بناء الهيكل، إنه لم يكن عاجزًا عن توظيف مخترعه العلمي من خلال تلك الثقافة، لقد فرض على الحلفاء في الحرب العالمية أنه سوف لا يبوح لهم بسر المخترع الذي يمكنهم من النصر ما لم يأخذ عليهم العهد في تأييد حق يهود في فلسطين.. وهذا الذي كان، وقدم هذا

العالم لأبناء دينه ما لم يستطع تقديمه جيش من الجهلاء أو العلماء الفاقدين للبصيرة والثقافة، والذين لا تزيد علومهم عن أن تكون نسخًا جديدة مما قرأوا أو معاجم جامدة في المكتبة!!

أين هذا من بعض مسلمي اليوم الذين جاءت مكوناتهم الثقافية ثمرة للسقوط الحضاري والتخلف الثقافي والعجز العقلي؟! حيث يرون بأن أمر الدعوة إلى الله يتعارض مع متابعة التخصص العلمي فيدعون الجامعات وقد يكونون في السنوات الأخيرة ليتفرغوا بزعمهم إلى أمور نشر الدعوة الإسلامية، وكأن الجهل وعدم النبوغ العلمي أصبح في نظرهم ضربة لازب لنجاح أمر الدعوة الإسلامية!!!

أليست هذه حالة محزنة وثقافة محزنة وواقع أليم؟!

إن الذي يرى الأمور «من فوق» بشكل عام قادر على تحقيق الانسجام وتقدير الحجوم والأبعاد وترتيب الأولويات والتمييز بين الأمراض والأعراض.

أين توهج العقل المسلم وقدراته الهائلة التي رباه عليها الإسلام؟! أين العقل القائس القادر على إدراك علل الأشياء.. المتبصر بأحوال الأمم والجماعات.. القادر على فهم السنن الاجتماعية والأسباب.. المتتبع للمسار الحضاري في نشوء وسقوط الحضارات.. القادر على التمييز بين الوسائل والغايات، وحكم التشريع، والعلل التي هي مناط القياس.. المتدبر لقوله تعالى:

﴿... **فاعتبروا يا أولي الأبصار...**﴾.. القادر على استيعاب الدرس التاريخي الخاص والعام المخاطب بقوله تعالى:

﴿**يا أيُّها الَّذين آمنُوا خُذُوا حِذرَكُم فَانْفِرُوا ثُباتٍ أو انْفِرُوا جَمِيعًا..**﴾ (النساء: ٧١).

إن إعادة النظر من حين لآخر في سلم المشكلات، وإعادة تصنيف هذه المشكلات وترتيب الأولويات حماية للجهد واغتنامًا لفرصة العمر، وتوفّر الطاقات والموازنة الدقيقة بين الحاجات والإمكانات وعدم الخلط بين الأمنيات والإمكانات، وإعادة النظر بالموقع الذي يمكن أن يكون فيه الفرد المسلم، والعاملون للإسلام، وإعادة النظر أيضًا بوسائل الدعوة وتطويرها حسب حاجات العصر ومن خلال مشكلاته، وعدم الضرب في الحديد البارد، وجعل الاختصاص في خدمة العقيدة والتقدم في قضية الدعوة واكتشاف المنابر المؤثرة، والمواقع الجديدة التي أخذت مكانًا ومكانة في المجتمع الحديث، والقدرة على دراسة شبكة العلاقات الاجتماعية والاقتناع بأن التفوق العلمي والتخصص النادر الذي يتحصن صاحبه بالدين القويم هو المطلوب لهذه الأمة، أصبح ضرورة لا غنى عنها.

لابد من بناء عقلية البرمجة والتخطيط ودراسة الأسباب، وحصول النتائج واكتشاف مواطن الخطأ والعجز، وإعادة المحاولة أكثر من مرة، وقد نخطىء كثيرًا ولانظفر بالمطلوب في أكثر من

جولة.. لكن على الأقل نطمئن إلى أننا وقفنا على الجادة وبدأنا طريق العودة الى الإسلام.

إن عطالة العقل المسلم ــ مسلم عصر التخلف ــ وإلغاءه تجاه مناقشة قضية صحة النتائج ومدى توافقها مع المقدمات بوحي من تصور إسلامي مغلوط، سيبقى العقل يراوح مكانه لا يبرحه ما لم يحرر من هذه المعضلة ويدرك أبعادها بشكل دقيق وسليم.

صحيح أن أمر ترتب النتائج على المقدمات مملوك لله تعالى ومراد له، ولو لم يكن ذلك كذلك لانتفت صفة الألوهية، وصحيح أيضًا أن الذي خلق قانون العلل والأسباب والسنن لا يمكن أن يُحكم به، ومن هنا كانت المعجزات التي أقل ما يقال فيها أنها خرق لقانون السببية وحصول النتائج دون وجود المقدمات، لكن من جانب آخر لابد من الاعتقاد أن الله يحكم البشرية به ويحاسبهم على ضوئه، وإلا توقفت الحياة وتعطلت وظيفة الانسان في الأرض القائمة أصلاً على تعاطي الأسباب وإتقانها وحسن التعامل معها لتوصل إلى النتائج، وبطل التكليف وترتب الثواب والعقاب وسادت العبثية.

إن الله لا يحكم نفسه بالأسباب والسنن التي وضعها لكنه هو الذي شرعها للمخلوق ليحاكمه على ضوئها، إن الأمر يتعلق بأصل قضية التكلف، ولو عدل المخلوق عن هذه السنن التي شرعها الله إلى غيرها من صناعة البشر لكان محل مساءلة.

إن عدم مناقشة ومراجعة ترتب النتائج على المقدمات أو

المسبِّبات على الأسباب تحت شعار «ليس علينا إدراك النتائج»، والاستسلام لها بهذه السهولة يفقدنا عملية الصواب والتصويب التي لا تتحصل إلاّ بالعودة إلى دراسة الثغرات التي كانت سببًا في تخلف النتائج واستدراكها: ﴿.. **قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**..﴾ (آل عمران: ١٦٥).

وإن الإيمان والالتزام .. بقول الرسول ﷺ:

«... وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا. لكن قل قدر الله وما شاء فعل»[1] لا يعني الاستسلام وإنما يعطي نوعًا من الإيجابية حتى لا تمتد العطالة والإصابة إلى المستقبل، إنه لا يلغي الفاعلية القائمة على تعاطي السنن أصلاً للتوصل إلى النتائج المطلوبة، وإنما يوفر الطاقة ويحول دون العجز والسقوط والبكاء على الأطلال.

إن كون النتائج وحصولها أو عدم حصولها من قدر الله أمر يوازي قضية السببية ولا يصدم بها، لأن الأسباب الموصلة إلى النتائج هي من قدر الله وسننه في الحياة أيضًا.

من هنا تأتي ضرورة إعادة ترتيب العقل المسلم اليوم على ضوء فهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سئل بعد تحوله برعيه من الوادي المجدب إلى الوادي المخصب ليؤمن لغنمه المرعى الصالح: كيف تفر من قدر الله؟ فيقول: فررت من قدر الله إلى قدر الله...

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر.

أما الفهم النصفي العليل بأن علينا تعاطي الأسباب وليس علينا مناقشة مدى ترتب النتائج على هذه الأسباب فقضية خطيرة تزري بالعقل المسلم وتتعارض مع سنن الله في الحياة والأحياء التي أمرنا بالتزامها..

إن تسلل مثل هذه القضية الخطيرة إلى حياة المسلمين دفعهم إلى الاستسلام المرفوض شرعًا وعقلاً، ولقد استراح عقل مسلم اليوم إلى هذه المقولة اتي جاءت ثمرة لعصر التخلف لأنها تعفيه من المسؤولية تجاه القضايا التي يخفق فيها، وتعفية من إعادة النظر لاكتشاف الثغرات وتسديدها لأن الأمر ليس بمقدوره وإنما هو من قدر الله.

كما أعفى نفسه من الاستشعار بالمسؤولية من وجه آخر بإلقاء التبعة على الآخرين في تقصيره وأخطائه دون أن يدري أنه نجّى نفسه ظاهرًا ليقع بما هو أسوأ وذلك بالحكم على نفسه أنه دون سوية المرحلة ودون سوية التعامل مع هذه المرحلة أيضًا!!

لقد هُزم المسلمون في أُحد وكان على رأس الجيش أكرم الخلق رسول الله ﷺ، ومع ذلك لانزال نتلو أسباب الهزيمة النفسية والمادية إلى اليوم منذ خمسة عشر قرنًا. أليست هذه التلاوة لتحقيق الاعتبار والتعرف على السنن لئلا نقع بما وقعوا فيه. أم هل يعيش بعض مسلمي اليوم فوق هذا المستوى!!

والرسول ﷺ يقول: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى

يُسْأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[1].

إنه التصرف المبصر بالطاقات التي ملّكنا الله إياها، وحسن الاستفادة من القدرات التي أتى الحديث على ذكر نماذج منها وحسن التصرف بها مع الاستشعار بالمسؤولية عنها.

إن قضية إدراك الأولويات وحسن قراءة الظروف وتحديد الإمكانات من أهم الأمور التي يجب التنبه إليها، ذلك أنها من هدي هذا الدين حيث نجد في تشريعه الفرض وهو أعلى أنواع التكليف، ونجد الواجب والسنة والمستحب والمندوب والمباح.. هذا في إطار الأمر، ويقابله أيضًا في مجال النهي مراتب متعددة للمنهي عنه، وإن الله تعالى لن يقبل من الفرد نافلة ما لم يؤد الفريضة.

إن هذه «الجدولة» إن صح التعبير أصبحت غائبة عن حياة كثير من المسلمين وحتى بعض العاملين للإسلام، فنراه يعيش من وراء بعض الجزئيات والفروع وبعض التكاليف الشرعية التي تكون في مرتبة السنن والنوافل أو المستحبات، ويقاتل في سبيلها وقد يقع في الحرام في سبيل الإصرار على تحصيلها، كما أنه قد يفوت فرضًا أو حقًّا لمسلم في سبيل الانتصار لمندوب.

إن الانشغال بالجزئيات ووضعها في غير موضعها من سلم التكاليف الشرعية بالإضافة إلى أنه دليل على إصابة العقل وقصوره،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة.

ودليل أيضًا على القابلية لاستمرار التخلف.. الأمر الذي يمكن للخصوم من نجاح عملية الغزو الفكري الذي كان همه ودأبه دائمًا أن يحرضنا ويثيرنا ويوجهنا صوب مشكلات هامشية جزئية يشغلنا بها ليتفرد هو بفعل ما يشاء..

إن ترتيب الشخصية المسلمة وصياغتها وفق معطيات الكتاب والسنة لتجيء شخصية متفردة متميزة قادرة على العطاء، ووضع الضوابط الصارمة للتصور والسلوك كان من القضايا المحورية التي تركز عليها الكثير من الآداب والأحكام والتدريب عليها من خلال العبادات والطاعات، وكانت عهدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي أنيطت بكل مسلم في المجتمع الإسلامي ليكون حارسًا أمينًا عليها ضرورة لازمة لحمايتها وضمان استمرارها.

إن مواقيت الصلاة، ومقادير الزكاة، وحساب الأهلّة، وأحكام الأداء والقضاء، والحول، والفوات.. وكل الضوابط دليل على تنظيم الشخصية أو وضعها ضمن مناخ التنظيم وإدراك الأشياء ومدى أهمية أدائها في وقتها وكيف أن عامل الوقت جزء هام من العملية الحضارية إلى جانب التعرف على السنن وحسن التصرف بالطاقات.. هذه الشخصية التي كانت قبل الإسلام تعيش سائبة بلا قيود ولاحدود ولا ضوابط..

لقد طرح الإسلام من خلال القرآن والسنة، رؤية جديدة للحياة، رؤية تبدأ في داخل الإنسان في عقله وقلبه وروحه ووجدانه

وغرائزه وميوله، وتنتهي في خارجه لكي تصوغه إنسانًا جديدًا مُتفوقًا قادرًا على التغيير المطلوب في بنية العالم، والتحكم من خلال ما أبصر من السنن التي شرعها الله بالحركة التاريخية لإعادة البشرية إلى المنهج المتوافق مع سنن الله..

من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب «إعادة تشكيل العقل المسلم» للأخ الدكتور عماد الدين خليل الذي نقدم له.

وإذا جاز لنا أن نقول: بأن الإنسان ينتهي اختياره إلى العمل الذي يحسنه، وقد هيأه الله لذلك «فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له»، وقلنا بأن الأعمال تصطفي القادرين على القيام بها من الناس فيمكن أن تصدق هذه المقولة على أخينا الدكتور عماد الدين خليل الذي يمكن أن تصنف كتاباته جميعًا ضمن إطار صياغة العقل المسلم، حيث امتلك من الصفات والمزايا إلى جانب طبيعة التخصص العلمي مايؤهله للعطاء في مثل هذا الموقع وكأنَّ بين مزاياه الشخصية وتخصصه تواعدًا والتقاءً.

لقد قدم تجربة رائدة في محاولة لتطبيق المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ والسيرة، المنهج الذي يقوم على التوازن بين الذات والموضوع، ويسعى إلى إحياء الموقف التاريخي، ويستهدف النظرة الكلية للأحداث والحركات والأشياء، المنهج الذي يوضح كم هي عظيمة نتائج اللقاء بين الأرض والسماء، كما أنه كان قادرًا على نقد مناهج المستشرقين الذين كتبوا في التاريخ والسيرة من خلال امتلاكه

المقياس الإسلامي الذي اكتسبه من القرآن الكريم.. ولعل محاولته الرائدة في كتابة التفسير الإسلامي للتاريخ تعتبر في مصاف المحاولات المتقدمة، والناجحة في هذا المجال.

إنه يرى أن القرآن الكريم يقدم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية كما فعل ابن خلدون على سبيل المثال فأعطى الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ما تلقوا إشارته تلك وبنوا عليها إلا بعد انقضاء سبعة قرون.. يقول:

لقد أكد القرآن على وجود سنن ونواميس تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطويرها وانتقالها من حال إلى حال..

ويرى أن كثيرًا من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين وقعوا في خطأ القول: بأن ابن خلدون هو أول من مارس هذا المنهج، وأنه لاتوجد قبله أية محاولة في هذا السبيل، ومن عجب أن ابن خلدون وقع في الخطأ نفسه عندما أكد في مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة في هذا المجال، وكان أحرى به أن يبين ما يتضمنه القرآن من إشارات تدل على الطريق!

وتأتي ميزة كتب وكتابات الدكتور عماد الدين من أنه يكتب في المنهج بشكل عام ويؤكد على ذلك في كل المناسبات، ويبين دور المنهج الخطير في حركة الإنسان الفكرية والحضارية عمومًا، وأنه

بدون المنهج، الذي هو ثمرة العقل المرتب ليس ثمة طريق يوصل إلى الأهداف مهما بُذل من جهد وقُدّم من عطاء، ويرى أن المنهج الذي تشكل العقل المسلم وفق مقولاته يقوم على السببية والقانون التاريخي، والبحث التجريبي.. والتحقق بالنظرة الشمولية التي منحها الإسلام للإنسان والتي جعلته قادرًا على رد سائر المخلوقات إلى مصدر واحد، الانسجام مع التوحيد والقضاء على التفكك والتجزىء والتقطيع والتسطيح «الإله واحد والخلق واحد».

ويقول:

«... إن الإسلام لم يرد لنا يومًا أن ننعزل عن الحياة ونتخذ إزاءها مواقف السلب والفرار، الإسلام حركة جهاد دائمة لتغيير العالم، لقد دعانا إلى النزول إلى الساحة من أول لحظة...».

من هنا نستطيع القول بأنه لم يؤمن بالموقف السلبي الانسحابي الذي يعني الرفض والانكسار، والذي انتهى إليه كثير من الناس.

لذلك كانت المواجهة بالنسبة له تعني أكثر من موقع وأكثر من وسيلة.. والمعالجة عنده جاءت لأكثر من قضية، ولعل هذا هو السبب في تعدد الاهتمامات وكثرة الجوانب التي كتب فيها وعرض لها في التاريخ والأدب والفكر والقصة والنقد.. وإن كانت جميعها تصدر عن معين واحد.

وإن إلقاء نظرة على مؤلفاته أو مكتبته إن صح التعبير لتدل

دلالة واضحة على الاهتمامات المتنوعة التي يعيشها وتؤكد ما ذهبنا إليه من أنها جميعًا تصدر عن معين واحد..

والحقيقة التي لابد من تسجيلها أنه يتمتع بمعدة هاضمة قادرة على التمثل الثقافي.. الأمر الذي لم يقتصر في كثير من الأحيان على الفكر العربي الإسلامي، وإنما تجاوز ذلك إلى تقديم نماذج من الفكر الأوروبي بشقيه الشيوعي والرأسمالي من خلال منظور إسلامي.

وإن كان هناك من يرى بأن الدكتور عماد الدين لو وفّر طاقاته لمتابعة نوع واحد من الثقافة وتعميق مفاهيم المنهج والإلحاح على ذلك وتقديم الدراسات والتطبيقات في ذلك لكان أنفع للمسلمين.. على أية حال تبقى وجهة نظر لها ما يبررها.

ويبقى لنا أن نعود إلى القول:

بالرغم من اعتزازنا بهذا الكتاب، وبقدرة المؤلف على معالجة مثل هذا الموضوع لا ندعي بأننا قدمنا الحل السحري للمشكلة التي يعاني منها العقل المسلم وإنما هي صوى على طريق الحل، وتبقى القضية محتاجة إلى المزيد من الأبحاث والدراسات، ويبقى شعارنا قولة سيدنا مالك رضي الله عنه: «كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر ﷺ...».

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب ويجزل الثواب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عمر عبيد حسنة



مقدمة

يحاول هذا الكتاب الموجز أن يتابع الخطوط العريضة لأصول التشكيل العقلي الذي نفذه الإسلام فمنح أتباعه تلك القدرات الفذة على الفعل والعطاء والإبداع.

فإذا ما افترضنا - ابتداء - نوعا من الإجماع على قدر من التخلف والجمود اللذين عانى منهما الإنسان المسلم عبر القرون الأخيرة، الأمر الذي أفقده القدرة على الفاعلية، والاستجابة - بالتالي - لتحديات الحضارة الغربية التي يصوغها وينمّيها العقل الغربي، أصبح من الضروري أن نشمّر جميعا عن ساعد الجد للبحث عن الصيغ والمفاهيم التي تتجاوز بنا هذه الحالة وتعيدنا كرّة أخرى إلى مركز الفعل والشهادة على صيرورة العالم ومعطياته الحضارية.

ويمكن أن تتمحور المحاولة في سياقين أساسيين، يتمثل أولهما في تشخيص الأدواء المعاصرة التي تحاصر العقل المسلم وتشل فاعليته (كما نلمح ذلك في العديد من الكتابات المعاصرة)، ويمضي ثانيهما إلى البحث عن «الأصول» الإسلامية التي حرّرت عقول

المتمين أول مرة، ومنحتها المنهج والفاعلية، وهي قديرة في كل لحظة على أداء الدور نفسه.

وهذا الكتاب الموجز إنما ينتمي لهذا السياق الأخير، فهو يعالج في فصله الأول النقلات، أو التحوّلات الأساسية التي نفذها الإسلام، أو منحها بعبارة أدق، عقول أتباعه في المجالات التصورية، والاعتقادية، والمعرفية، والمنهجية.

ويسعى في فصله الثاني لتقديم عرض موجز لأبعاد التحقق التاريخي الذي نفذه العقل المسلم المصنوع على عين الله وتوجيه رسوله الكريم ﷺ.

أما الفصلان الأخيران فيؤشران على الملامح والسمات الخاصة للتوجه الحضاري لهذا العقل، وللحضارة التي صنعها والتي يطلب منه أن يصنعها على اختلاف الأمكنة وتغاير الأزمان. لكن ما يلبث ـ الكتاب ـ أن يخلص في « الخاتمة » إلى أن حل المعضلة يمكن أن يتحقق من جديد، وببرنامج العمل نفسه الذي صنع حضارة الإسلام المتألقة في عصور الفاعلية والعطاء، ليس بالانفصال عن العصر ولكن بالعمل في صميم العصر كما يوحي عنوان «الخاتمة».

وإذا كان فيلسوف التاريخ الإيطالي المعروف «كروتشه» يطرح في إحدى مقولاته مبدأ «أن التاريخ كله تاريخ معاصر»، فكيف لا يكون هذا في نطاق العقيدة الإسلامية الدائمة التي جعلها الله

مفتاحا لحل كل ما يمكن أن يعترض الجماعة المسلمة في الزمن والمكان؟.

إن السنن التي تعمل عملها في التاريخ هي نفس السنن، والإنسان هو الإنسان، والذي يتغير هو الجزئيات والتفاصيل الأصغر حجما، ونحن إذا أردنا أن نتحقق بدور فاعل، أو نستعيد هذا الدور بعبارة أدق، فعلينا أن نبحث ـ أولا ـ في السنن والنواميس. أن نرجع إلى الأصول، مع الاعتراف ـ بطبيعة الحال ـ بالتأثير البالغ للمتغيرات التاريخية والجغرافية.

وببساطة بالغة، وتجاوزا للعبة وضع الخلفيات الفلسفية على المعضلات الكبرى قبل الإقدام على حلها، فإن مما أعاق تقدمنا نحن المسلمين في القرون الأخيرة وجود أكثر من خلل في الدوائر أو المجالات التالية :

١ ــ التصورات الاعتقادية.

٢ ــ التعامل المعرفي.

٣ ــ منهج العمل.

ولو أنا قمنا بجولة سريعة لقراءة تاريخنا الحديث والمعاصر، فإننا لن نجد علة أوخللا، بما في ذلك مأساة ما يسميه المفكر الجزائري المسلم (مالك بن نبي) ـ رحمه الله ـ «القابلية على الاستعمار» يخرج عن هذه الدوائر الثلاث التي كان هذا التاريخ، بمعطياته، نتاج فعل أو رد فعل لواحد أو أكثر منها.

وثمة بداهة أخرى : أننا لو نظرنا إلى ما فعله نموذجان شرقيان إزاء تحدي الحضارة الغربية، وهما الصين واليابان، لوجدنا أنهما بحصانتهما الذاتية إزاء تفوّق هذه الحضارة من جهة، وبانتزاع أسرارها التقنية واعتمادها من جهة أخرى، دونما أي قدر من التنازل عن الذات، قدرت هاتان الأمتان أن تطويا معظم المسافة بينهما وبين التفوق الغربي، أفلا يكون هذا أجدر بنا؟

أولا يكون التحصن العقيدي والاستمداد من الجذور هو الضمان الوحيد لحماية الذات؟ ثم، وحتى لا يتصور أي قارىء أن الدعوة لاعتماد الأصول تمثل انفصالا عن العصر، جاءت خاتمة الكتاب الموجزة تحت عنوان مقصود هو «نحو تكنولوجيا إسلامية» وأعتقد أن طرفي هذه العبارة اللذين وردا في تلك الخاتمة تحت مبدأي «التحقق أو التغيير الذاتي» و«الإعداد الذاتي» يجعلان البحث يصب في عصرنا الراهن دونما دخول في التفاصيل التاريخية لهذا العصر.

ثمة ـ أخيرا ـ ما أرجوه من القارىء وهو ألا يخطر على باله أبدا أن يكون هذا الكتاب ثمرة «لرد الفعل» إزاء إلحاح بعض الإسلاميين على الدور الذي يمكن أن تؤدّيه التربية الروحية والأخلاقية في مجابهة المشكلة. كما أرجو ألاّ يخطر على باله، كذلك، أن يكون الكتاب محسوبا على خط «العقلانية» التي تضع «الإيمان» في المرتبة الثانية أو الثالثة.

إن هذه النظرة التجزيئية مرفوضة أساسا، وأن التأكيد على ضرورة إعادة تشكيل العقل المسلم لا يعني أبد التقليل من شأن العوامل الأخرى، لا سيّما وأن التجربة الإسلامية تتعامل مع الإنسان وحدة متوحدة، ونسيجا متشابك الخطوط، وتتأبى على التفكيك والتمزيق والانتقاء.

ولكن، لما كان العقل المسلم قد أصيب بكسور خطيرة في العصر الراهن، ولما كان الإسلام نفسه قد أولى العقل تلك الأهمية القصوى التي تكاد تكون بداهة من البداهات فإن النتيجة الطبيعية، غير المفتعلة، أن يكون «التأكيد» على إعادة التشكيل العقلي في إطار إسلامي، ضرورة ملحة وأمرا محتوما.

إن المسلم هو «نسيج وحده» عقلا وروحا وجسدا ووجدانا، ولكن منطق الأولويات قد يقضي بالتأكيد على هذا الجانب حينا، وعلى ذلك الجانب حينا آخر، ولن يقول أحد بأن الدعوة في كلتا الحالتين تتمخض عن ردود الأفعال. إنما هي الرؤية الواقعية للمشكلة، والسعيْ الجاد لإضاءتها وتقديم الحلول المناسبة لها.

ويبقى الإنسان المسلم «نسيج وحده» كما أراد له دينه أن يكون.

الموصل : عماد الدين خليل



الفصل الأول

[١]
التحولات الكبيرة

لم يكن تطوراً اعتيادياً بالحسابات التقليدية.. لقد كان بمثابة قفزات في منظوريّ الزمان والمكان.. أما من الداخل، من تشكّل العقل المؤمن الجديد فقد كان بمثابة رَجّات كهربائية متلاحقة أسقطت عنه الريْن، ولاحقت زوايا العتمة في طياته، ودفعت به إلى العالم: فاعلاً، متألقاً، متوهجاً، قديراً على الفعل والتحقّق والإبداع..

لقد تم ـ بإعجاز مذهل ـ تجاوز صيغ المعادلات القديمة.. وكسرت الأرقام القياسية، وبعث عقل جديد عرف كيف يعيد صياغة العالم..

لقد أريد للعقل المسلم أن يظل متوهجاً منذ لحظة الوعي الأولى حتى اللحظة التي يطفئه فيها برد الموت ويطمس عليه ظلامه العميق..

إن العقل البشري قد أعيد تشكيله.. وطرحت تجاهه آفاق شاسعة، ممتدة الجوانب، بعيدة الحدود، دُعي للتحرك إليها والاستجابة لنداءاتها.. على المستويات كافة : التصورية، الاعتقادية، المعرفية، المنهجية.. والحضارية.. وكان جديراً حقاً بتلبية النداء، قديراً على التحقق بمعطياته..

إنها الأمانة...

ولكن.. وقبل أن ندخل في تفاصيل هذه التحولات الخطيرة في مستوياتها الأربعة، نجد أنفسنا إزاء هذا السؤال الملح :

إن «القضية» أو «الدين الجديد» في التحليل النهائي، تمثل تعبيراً عن التقابل الشامل بين علم الله الذي لا تحدّه حدود وبين قدرة الدماغ البشري، والكينونة الآدمية عموماً، على إدراك هذا العلم وهضمه وتمثله وتحويله إلى فعل متحقق، وسلوك منظور، وصيرورة تاريخية مبدعة... وإذا استخدمنا التعبير القرآني نفسه قلنا :

إنه عرض (الأمانة) الكبرى التي لم تطق حملها السماوات

والأرض، وها هي الآن تعرض على الإنسان . .

فهل هو قدير حقاً على الالتزام بالمهمة الصعبة؟

وهل ثمة ما يمكن أن يخشى من حدوث نوع من الانفصال، من التباعد أو الثنائية بين معطيات الدين المتقدمة هذه، وبين القدرة البشرية، العقلية والروحية، على التحمل والتمثل والالتحام؟

لن نستعير مصطلحاً أجنبياً إن قلنا : إن الدعوة الجديدة كانت (تقدمية) جداً بالنسبة للعقل البشري . . . وإنها طرحت من المعطيات مالم يكن بمقدور هذا العقل، حتى وهو يدّعي صعوده الذروة في القرن العشرين هذا، على إدراك بعض جوانبها، فضلاً عن هضمها وتمثلها وتحويلها إلى فعل وتحقق وصيرورة وسلوك وإبداع . .

إننا هنا إزاء معادلة صعبة من الدرجة الرابعة ـ إذا صحت التعابير ـ . علمٌ غير محدود إزاء قدرات عقلية محدودة لم تكن تملك الدربة الكافية والمران المطلوب لتقبل نفحات هذا العلم الممدود . .

فكيف تمت الاستجابة؟

كيف قدر العقل المسلم على حمل الأمانة وتنفيذ المهمة وإداء الدور؟

كيف لم يحدث، في الأعم الأغلب، ما كان يمكن أن يحدث

من انفصال وتباعد وسوء تفاهم بين المطالب الجديدة (المتقدمة) وبين الشدّ التاريخي، والتقاليد السائدة، والقدرات المحدودة؟

لقد حدث شيء من «سوء الفهم» هذا.. من عدم التقبل، والتفاعل، والالتحام.. ما في هذا شك.. وعلى الطرف الآخر.. كان أحد أهم أسباب تشبث الكفار بمواقعهم يكمن ها هنا: عدم قدرة عقولهم على استيعاب المضامين والمعطيات والآفاق التي جاء بها، وطرحها، وعرضها عليهم الدين الجديد..

إلّا أن الخط الأكثر عمقاً وامتداداً، أن المنتمين إلى الدين الجديد عبر سلسلة طويلة من الأجيال، كانوا عند حسن الظن وحققوا القفزة المرجوة في اتجاهاتها جميعاً..

المسارعة... والسبق!!

فكيف تمت المعجزة؟

وما هي (الظروف) التي أعانتها على التحقق: استيعاب مذهل للعقل البشري، لتغيرات جذرية، مكنته من إعادة التشكل والعمل وفق صيغ جديدة لم يألفها قبلُ إنسان؟!

إننا نستطيع أن نحظى ببعض الإضاءات المركزة التي قد تعين على الجواب.. إن الإسلام ـ من جهة ـ منح المنتمين إليه قدرات «إضافية» لتجاوز حيثيات الزمان والمكان والتحقق بالتوافق المنشود.. إنه، بالسُّلّم ذي الدرجات العريضة الذي رسمه لهم،

والـذي يبـدأ بـالإسـلام وينتهي بـالإحسـان ، مـروراً بـالإيمـان والتقـوى. . شحـذ طـاقـاتهم، وشـدَّ همتهم، ونفـخ في روحهم، ودفعهم دفعـاً إلى التجاوز والاختـراق من أجل الـوصول إلى القمـة التي يطمح إليها كل منتمٍ لهذا الدين: الإحسـان. . هنالـك حيث التكشف الكامل، والإبـداع التام، والتقـابل الـذي لا يحجبه شيء بين الله والإنسان. . (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فـإنه يراك). .

إن النـاس في الأعم الأغلب، يمشـون إلى أهـدافـهم، أو يهرولون إليها، ولكننا هنا نجد أناساً يركضون. . لقد بعث الإسلام أجيالاً من العدَّائـين الذين عـرفوا كيف يحـطمون الأرقـام القياسيـة وهم يجتازون المـوانع والمتـاريس، ويقطعـون المسافـات الـطوال. . . إن القـرآن الكريم نفسـه يصفهم بأنهم ﴿يُسَـارِعُونَ فِي ٱلْـخَـيْرَاتِ﴾ وأنهم ﴿... لَهَـا سَـابِقُـونَ﴾. . فهـا نحن بصدد مؤشرين للسرعـة. . والإنجاز الذي يختزل ويحقق أهدافه القياسية المرتجاة : المسارعـة. . والسبْق.

ومن خلال هذا المدرَّج المرسوم بعناية. . عبر هـذا السلَّم ذي الـدرجات العـريضـة يصعـد المسلم ركضـاً إلى القمـة، ويتمكن، بـالعمل الجـماعي المـبرمـج والاقتنـاع بحيثيـاتـه، وبيقـظة الضمـير المتوهج، والـرغبة العميقـة في الإتقان والإبـداع، من الوصـول إلى الهـدف المنشود : التحقق بـالقيم الكبرى التي جـاء بها هـذا الـدين والـوفاق مـع معطيـاتها. . رغم صعـوبة هـذا التحقق وغـلاء ثمنـه المبهظ، ورغم البعد الشاسع الذي كان يفصل ولا يزال، بين آفـاق هذا الدين وبين المنتمين إليه. .

من جهـة أخرى، فـإن الحركـة الإسلاميـة في العالم، هي في حقيقة الأمر حـركة صـوب «الوفـاق» مع نـواميس الوجـود، وسنن الـطبيعة، وقـوانـين الكـون. . لقـد انشقَّت أجيـال بني آدم، بهـذه الـدرجـة أو تلك، ولهـذا السبب أو ذاك، عن النـامـوس. . وجـاء الإسـلام ـ بمفهومـه الشامـل ـ لكي يعيدهـا إلى الانتماء والـوفاق. .

العودة إلى الأصول. . .

هكـذا تم قطع رحلة الأميـال الآلاف وصولاً إلى خط النهـاية والفوز العظيم. . وخط النهاية ها هنا هـو معانقـة المصير المتفـرد. . والتحقق بالإحسان. .

إن الغربيين يتفوقون اليوم علينا بـأشياء وممـارسات كثـيرة. .

ولا ريب أن من أبـرز هـذه الأشيـاء والممارسـات هـو قـدرتهم عـلى الركض إلى الأهداف، وتجاوز المشي أو الهرولة إليها. . عـلى اختزال حيثيات الزمان والمكان. . على الحفاظ على شدهم وتوترهم المعـطاء حتى خط النهاية. . على المسارعـة في الإنجاز والسبق إلى كـل ماهـو أكـبر وأكثر غنـاء. . ولن يكون بمقـدورنـا أن نـلاحقهم ونصـل إلى مواقعهم. بله أن نسبقهم، مالم نتحقق بالشرط نفسه. . إننـا هنا لا نستعير تقليداً حضارياً من الغرباء ولكننا نرتد إلى أصولنا، نرجع إلى كتابنا وسنتنا وتقاليد أجدادنـا الرواد لكي نعـرف كيف يكون السبق الحضاري. . والتحقق. . والإبداع!!. .

إن الانتـماء إلى الإسلام يعني - في نهايـة التحليـل - المـوافقـة المبدئية على الدخول في عمل مبرمج مرسـوم. . والإيمان بـالله يعني التحقق بالقناعات الكافية بجدوى هـذا العمل. . أمـا التقوى فهي تلك الـطاقة الفـذة التي تشعل مصبـاح الضمير فيـظل متـألقـاً متوهجاً حتى يغيب الإنسـان في التراب مـا دام يشعر في كـل عصب وجـارحة وخليـة أن الله يرقبـه وهو يمـارس هذا العمـل أو ذاك. . . ويجيء الإحسـان لكي يضـع الإنسـان المسلم المؤمن المتقي. . في القمة. . في المصاف الأعلى حيث الإحسان. . الإبـداع الكامـل في كل ما يقدمه الإنسان. . إنه ها هنا يقف أمـام الله سبحانـه. . وإن نداءً كريماً من نبيه ﷺ ينفخ فيه اللحظة تلو اللحظة إن الله يحب منه إذا عمل عملاً أن يتقنه. .

من نتائج هذه العودة . .

ولنا أن نتصور حجم النتائج المتمخضة عن هذه العودة . . إن الإنسان بمجرد انتمائه الجاد إلى هذا الدين، يضع نفسه وقدراته في سياق واحد، وتوجه واحد، ومجرى واحد مع خلائق الله كافة، وسننه المذخورة في الطبيعة، ونواميسه العاملة في الكون . . إنه سيتجاوز مواقع الارتطام التي تفتت الطاقة وتضعف فاعليتها . . إلى الانسجام والتناغم مع السنن والنواميس، سوف يضيف إليها ويأخذ منها . . ومن هذا الشد المتبادل من هذا الوفاق . . من هذا الأخذ والعطاء على الدرب الواحد، بالقانون الواحد، صوب الهدف الواحد . . يتحول الإنسان المؤمن إلى (طاقة) فذة في ميدان الفعل والإنجاز . . قدرة مذهلة في مجال العطاء والإبداع . . شعلة متوهجة يمتد إشعاعها إلى أعماق الذات فيضيئها ويدفعها، وإلى آفاق العالم فتتبين ملامح الطريق . . ليس ثمة تفتت في الطاقة، ولا غموض في الطريق، ولا ضياع للأهداف . .

يومها ينطلق المسلم، فرداً وجماعة، بقوة اختزال مدهشة لمواضعات الزمان والمكان والتراب، وصولاً إلى أهدافه المرتجاة . .

إن الوفاق الحركي بين الإنسان والكون لهو أحد مفتاحين كبيرين يفسران لنا كيف يتحقق صعود الإنسان، لا أقول إلى القمر، ولكن إلى أبعد منه : الآفاق البعيدة التي جاء هذا الدين لكي يقود الإنسان إليها . .

فأما المفتاح الآخر فقد عرفناه قبل قليل : إنه ذلك السلم الذي تشرف درجته العليا على أرفع ما في العالم من قيم تشرِّف الإنسان وتسعده وتزكيه.. والتي تجعله يقف تجاه الله سبحانه : سعيداً، متوحداً، قديراً على الفعل والعطاء والإبداع..

ومهما يكن من أمر فإن «المسافة» التي تفصل الإنسان عن «الأهداف» التي تنزل بها الإسلام، تظل متطاولة، متباعدة، صعبة، نائية، ولن يكون بمقدور أحد من الناس أن يجتازها بسهولة.. إنه لابد من التحقق بالشروط التي بدونها لن يكون وصول أبداً إلى الأهداف..

وإن القرآن الكريم «ليحدثنا» في اثنتين من آياته البينات عن السبب في صدِّ الكثيرين عن نداءات هذا الدين.. وعن أن الصيرورة الزمنية، بما تحقق من تراكم في الخبرة، ومزيد تألق في العقل، كفيلة بالإعانة على تجاوز المعضلة، والاقتراب أكثر من الهدف المرتجى :

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ...﴾ (يونس : ٣٩).

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾ (فصلت : ٥٣).

ومعنى هـذا . . أن خبرة البشريـة، التي تزداد تضخـماً يـومـاً بعـد يوم، في الكم والنـوع، والتي قد تبـدو في كثـير من الأحيـان، منسـاقة وراء نـداء الشيطان. . مغـرورة. . منتفخـة. . مـارقـة. . متبجحـة. . هي نفسهـا التي ستقـرب أجيـال بني آدم من الحق. . وهي نفسهـا التي سـتريهم آيـات الله في الأنفس والآفـاق. . وهي نفسها التي ستعينهم على بلوغ الأهداف. .

إن مرور الزمن بهذا المعنى، يدفـع المسلمين اليـوم ـ أو هكذا يجب أن يكون ـ إلى مزيد من التفاؤل.

وإن تراكم الخبرة، ونمو معطيات الكشف والابتكار، ستقرب البشرية من الله. .

إن الزمن في خدمة هذا الدين. . أو هكذا يجب أن يكون. .

والآن. . ما هي أبعاد «التحولات» أو «النقلات» التي نفـذها الإسـلام إزاء جيل الـروّاد من صحابـة رسول الله ﷺ، فـأعاد بهـا تشكيل العقل البشري ودفعه إلى العطاء والإبداع؟.

[٢]
النقلة التصورية الاعتقادية

نبدأ بأولى هذه التحولات، وأكثرها أهمية، لأنها بمثابة القاعدة التي انبنت عليها سائر التحولات: النقلة التصورية ـ الاعتقادية.

فإنه ما من خطوة في تاريخ البشرية حرَّرت العقل، وكرَّمته، ووضعته في موقعه الصحيح كهذه الخطوة: تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى الوحدة، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون.. كسر للحاجز المادي باتجاه الغيب، وتمكين للعقل من التحقق بقناعاتٍ تعلو على معطيات الحس القريب..

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذه النقطة فقال: إنها خروج بالناس ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَىٰ ٱلنُّورِ﴾.. التحول الكامل من الأسود إلى الأبيض، والانتقال من النقيض إلى النقيض.. وقال أيضاً بأن الإسلام جاء لتحرير بني آدم:

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧).. ونادى أكثر من مرة بأن الدين الجديد هو (الصراط المستقيم) وما وراءه فليس سوى التيه، والاعوجاج، والضياع، والهوى، والضلال.. ولن يقدر عقل مهما أوتي من فطنة

على أن يعمل ويبدع ويعطي وهو يتخبط في التيه ويكبل بالأغلال . .

والفاتحون الذين أسقطوا الدول والامبراطوريات، وغيروا خرائط العالم، قالوها صراحة : جئنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . .

إن العقيدة الجديدة جاءت لكي تنقل الإنسان إلى السعة والعدل والتوحيد . . هنالك حيث يجد العقل نفسه، وقد أعيد تشكيله بهذه القيم، قديراً على الحركة والفعل عبر هذا المدى الواسع الذي منحه إياه الإسلام، غير محكوم عليه بظلم من سلطة فكرية قاهرة ترغمه على قبول مالا يمكن قبوله باسم الدين، متحققاًبالتقابل الباهر بين الإنسان والله . . حيث يملك وحده حقَّ التوجه، والتعبد، والمصير . .

شيء عن الجاهلية . . .

ولكي ندرك البعد الشاسع لهذه النقلة التصورية في مجال العقيدة، فإن لنا أن نستحضر في أذهاننا شيئاً من ممارسات العقل العربي في الجاهلية، وطرائق إدراكه للعالم، وصيغ تعامله مع ما «تصوره» القوى التي تهيمن عليه، وتسيره . . ونقارن هذا بالمصاف الذي احتله العقل المسلم بعد إعادة تشكيله بالاعتقاد الجديد .

يقول ابن الكلبي في كتابه المعروف «الأصنام» :

«. . . كان الذي سلخ بالمكيين إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة. . ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم»[1].

وحدث أن أصيب عمرو بن لحي ـ الذي يلي أمر الكعبة ـ بمرض شديد «فقيل له :

. . . إن بالبلقاء بالشام حمة إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ؛ ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال : ما هذه؟ فقالوا : نستسقي بها المطر!! ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة»[2].

ومن يومها والأصنام تزداد في أروقة مكة وأطرافها بمرور الوقت، والأوثان تتكاثر. . والخرافات التي جعلت من الحجارة آلهة تعبد ويتقرب بها إلى الله. . تنتشر وتمتد وتتشابك لكي ما تلبث أن

---

(١) هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كتاب «الأصنام» ص٦، (تحقيق أحمد زكي، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ـ ١٩٢٤م).

(٢) المصدر السابق نفسه ص٨.

تغطي حياة العربي كلها في عبادته وعمله.. في ليله ونهاره.. في صحوته ومنامه..

ويروح ابن الكلبي يحكي لنا عن الأصنام التي اتخذها العرب آلهة: سواع.. ودّ.. يغوث.. يعوق.. نسر.. مناة.. اللات.. العزىٰ.. هبل.. أساف ونائلة.. ذو الخلصة.. ذو الكفين.. ذو الشرى.. الأقيصر.. نهم.. رائم.. سعيد.. الفلس.. سعد.. اليعبوب.. باجر.. عميانس.. وعشرات.. بل مئات أخرى من الأصنام والأوثان لم تكن منتشرة في الصحراء وحدها، بل على العكس، كانت المدن الأكثر تقدماً هي الساحات التي تعج بها وتزدحم.. وحول كل صنم أو وثن حشد من الخرافات والأوهام والأضاليل، تراكمت وتشابكت كما تتشابك خيوط العنكبوت في الأماكن المهجورة.. ولا يبخل علينا ابن الكلبي بهذه الترهات..

«كان إساف يتعشق نائلة في أرض اليمن، فأقبلوا حجاجاً، فدخلوا الكعبة فوجدوا غفلة من الناس وخلوة في البيت، ففجر بها هناك، فمسخا، فأصبحوا، فوجدوهما مسخين، فأخرجوهما فوضعوهما في موضعهما، فعبدتها خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب»[٣].

---

(٣) المصدر السابق نفسه ص٩.

«وكانت الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرهما، يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم؛ فإذا نفروا أتوا مناة (على ساحل البحر الأحمر) فحلقوا رؤوسهم وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك»[٤].. والأوس والخزرج قبيلتان ممن هداهما الله إلى الإسلام - فيما بعد - وأعز بهما دينه ونصر رسوله ﷺ.. فليس ما يقول بعضهم من أن الدين القويم لا ينبت في النفوس الملتوية والعقول الضالة، فإنه ما دام الإسلام قد قام بين العرب فهم - بالضرورة - ليسوا جاهليين!!

«وكان هبل في جوف الكعبة، قدّامه سبعة أقداح، مكتوب في أولها «صريح» والآخر «ملصق» فإذا شكوا في مولود، أهدوا له هدية، ثم ضربوا بالقدح، فإذا خرج «صريح» ألحقوه، وإن خرج «ملصق» دفعوه. وقدح على الميت، وقدح على النكاح، وثلاثة لم تفسر على أي شيء كانت، فإذا اختصموا في أمر وأرادوا سفراً أو عملاً، أتوه فاستقسموا بالقداح عنده، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه»[٥]. كأن ليس لهم عقول تهديهم إلى ما يفعلون، ولا إرادة حرة تمكنهم من فعل ما يختارون.. وكأن الشك في صحة أنساب أبنائهم كان هو القاعدة، واليقين هو الشذوذ، ولذا كانوا يلجأون للأقداح علّها تقطع شكهم باليقين.

---

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٤.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٢٨.

«وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً!!»[٦]، وكان لقضاعة ولخم وجذام وأهل الشام صنم يقال له «الأقيصر» فكانوا يحجونه ويحلقون رؤوسهم عنده؛ فكانوا كلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعرة قبضة من دقيق[٧]. وكان مالك بن حارثة يبعث به أبوه باللبن إلى ودّ، ويقول : اسقه إلٰهك!! يقول مالك : فأشربه!! ثم رأيت خالد بن الوليد ـ بعدُ ـ كسره فجعله جذاذاً»[٨]، وهو يذكرنا بتلك القبيلة من بني حنيفة التي كانت إذا جاعت أكلت إلٰهها المصنوع من التمر. .

«واستمرت العرب في عبادة الأصنام ـ يقول ابن الكلبي ـ فمنهم من اتخذ بيعاً، ومنهم من اتخذ صنماً. . ومن لم يقدر ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها «الأنصاب». . فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاثة أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل ذلك،

---

(٦) المصدر السابق نفسه ص٣٣.
(٧) المصدر السابق نفسه ص٤٨.
(٨) المصدر السابق نفسه ص٥٥.

فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة يحجون ويعتمرون إليها، وكان الذين يفعلون من ذلك في أسفارهم إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها ولصبابة بها»[9].

من هذا المستنقع الآسن.. من هذه النقرة الضيقة التي يختنق فيها العقل والروح والوجدان... من هذه الخرائب المهجورة التي يعشش فيها التخلف، والسخف، والسذاجة، جاء الإسلام لكي يخرج بالإنسان إلى آفاق التوحيد، ونضج التصور، ونقاء الاعتقاد.. فيحرر عقله وروحه ووجدانه، ويعيد تشكيلها من جديد.

لقد طرحت هذه العقيدة، أو بنيت بعبارة أدق، على حشد من القيم التصورية، كالربانية والشمولية والتوازن والثبات والتوحيد والحركية والإيجابية والواقعية... تلتئم وتتداخل وتتكامل لكي تشكل نسقاً عقيدياً، ما بلغت عشر معشاره أية عقيدة أخرى في العالم، وضعية كانت أم دينية.. ولن تبلغه أبداً.، . وكما أن هذا «النسق» المحكم يمثل تطابقاً باهراً مع معطيات الفطرة البشرية في أصولها النقية الحرة.. فإنه يمثل في الوقت نفسه تطابقاً مذهلاً مع معطيات العقل المحضة، وتطلعاته وآفاقه.

---

(٩) المصدر السابق نفسه ص٣٣.

إن التصـور الإسلامي نسيـج وحده. . . وإن المغـزل الإلهي الذي حاكه بإعجاز يصعب تنفيذه على الإنسان. . هـو الذي عـرف كيف يعيـد تشكيل العقـل الجديـد، ويـدفعـه في الـوقت نفسـه إلى الحركة التي لا سكون بعدها.

لقد منحه الأرضية. . وأعطاه الإشـارة. . وسنجـده ينـطلق بعدها، لكي يصنع المعجزات.

[٣]
النقلة المعرفية. . .

النقلة (الإسلامية) الأخرى، أو التحول الآخر، تحول معرفي. . عمل في صميم العقل من أجل تشكيله بالصيغة التي تمكنه من التعامل مع الكون والعالم والوجود، بالحجم نفسه، والطموح نفسه، الذي جاء الإسلام لكي يمنحهما الإنسان.

منذ الضربة الأولى في كتاب الله. . الكلمة الأولى. . نلتقي بحركة التحول المعرفي هذه:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ - ٥).

وعبر المسيرة الطويلة، مسيرة الاثنين والعشرين سنة، حيث كانت آيات القرآن تتنزل بين الحين والحين، استمر «التأكيد» نفسه لتعميق الاتجاه، وتعزيزه والتمكين للنقلة، وتحويلها إلى واقع يومي معاش.

إن نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكير، والتعقل والتفقه والتدبر.. إلى آخره.. منبثة في نسيج كتاب الله.. لم تخفت نبرتها أبداً هناك في العصر المكي أو هنا في العصر المدني.. لكأنها معجونة بالخيط الإلهي الذي نسج آياته البينات...

ليس عبثاً أن تكون كلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ هي الكلمة الأولى في كتاب الله... وليس عبثاً أن تتكرر مرتين في آيات ثلاث... وليس عبثاً ـ كذلك ـ أن ترد كلمة ﴿عَلَّمَ﴾ ثلاث مرات وأن يشار بالحرف إلى القلم: الأداة التي يتعلم بها الإنسان..

وبعدها، وعبر المدى الزمني لتنزّل القرآن، ينهمر السيل ويتعالى النداء المرة تلو المرة: اقرأ، تفكر، اعقل، تدبر، تفقه، انظر، تبصَّر.. إلى آخره.. ويجد العقل المسلم نفسه ملزماً، بمنطق الإيمان نفسه، بأن يتحول، أن يتشكل من جديد لكي يتلاءم مع التوجه (المعرفي) الذي أراده الدين الجديد:

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة: ١٨).

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ (الإسراء: ١٠٦).

﴿فَاسْأَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَأُونَ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (يونس: ٩٤).

﴿عَلِمَ أَلَّنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ﴾ (المزمل: ٢٠).

﴿وَإِذَا قُرِىءَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَىٰ﴾ (الأعلى: ٦).

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؟ (محمد: ٢٤).

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ ٱلأَوَّلِينَ﴾ ؟ (المؤمنون: ٦٨).

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩).

﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (المدثر: ٥٥ ـ ٥٦).

﴿أَوَلاَ يَذْكُرُ ٱلإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾؟ (مريم: ٦٧).

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُونَ﴾ (الصافات: ١٣).

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب: ٣٤).

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٦٣).

﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ (البقرة: ٢٣١).

﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَسْطَةً فَٱذْكُرُوا آلَاءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ٦٩).

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: ٤٥).

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ (الكهف: ٥٧).

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً﴾ (الفرقان: ٧٣).

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٨٠).

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَلَا ٱلْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (غافر: ٥٨).

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ (الرعد: ١٩).

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩).

﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٢٧).

﴿وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

﴿وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧).

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٦).

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ هُدىً وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلأَلْبَابِ﴾ (غافر: ٥٤).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧).

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٢).

﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (المزمل: ١٩).

وسوف نلتقي في الحديث عن (النقلة المنهجية) بحشود أخرى من الآيات القرآنية عن الأفعال المعرفية الأخرى: النظر، السمع، البصر، التعقل، التفكر، التفقه، . . العلم . . إلخ.

بل إن نسيج القرآن الكريم نفسه، ومعطياته المعجزة، من بدئها حتى منتهاها، في مجال العقيدة، والتشريع، والسلوك، والحقائق «العلمية»، تمثل نسقاً من المعطيات المعرفية كانت كفيلة، بمجرد التعامل المخلص الذكي المتبصر معها، أن تهز عقل الإنسان وأن تفجر ينابيعه وطاقاته وأن تخلق في تركيبه خاصية التشوق المعرفي لكل ما يحيط به من مظاهر ووقائع وأشياء . . .

لقد كان القرآن الكريم يتعامل مع خامةٍ لم تكن قد حظيت من «المعرفة» إلا بالقسط اليسير. . مع جيل من الناس لم يبعد - بعد - عن تقاليد الجاهلية، وقيمها، وطفولتها الفكرية. . لكنه قدر، بقوة الإيمان المعجون بالدعوة الجديدة، على أن يعلمهم فعلاً. . وذلك بأن يعيد تشكيل عقولهم لكي تكون قديرة على استيعاب المضامين الجديدة، مدركة للأبعاد الشاسعة التي جاء هذا الدين لكي يتحرك الإنسان صوب آفاقها الرحبة. . وما كان ذلك ليتحقق لولا إشعال فتيلة التشوق المعرفي للمسلم، ودفعه إلى البحث والتساؤل والجدل. . .

لقد انتهى عهد الاستسلام والسكون والرضىٰ بأوساط الأشياء. . وجاء عهد القلق والحركة. . بحثاً عن الكمال الذي يليق بمعطيات الدين الجديد. .

لقد حرث الإسلام، في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، الأرض البكر، بعد أن انتزع حشائشها الضارة ودغلها، ومنحها الماء، وبذر فيها البذور الصالحة للإنبات. . ولن تكون النتيجة، بعدها، إلاّ حدائق ذات بهجة، وفاكهة، وأبّا. . ولن يكون الحصاد إلاّ جنىً حلواً وشهداً. . .

إن الإسلام لا يهتم بالتفاصيل. . ولكنه يسعى إلى تكوين «بيئة» عمل وإنجاز تتضمن الشروط والمواصفات كافة التي تمكنها

من العطاء. . وها هنا، في حقل التوجه المعـرفي، تمكن الإسلام من خلق هذه البيئة. . فبعث أمة من الناس لا يزال عقلها يعمـل ويكد ويتـوهج. . . حتى أنـار الطريق للبشريـة يوم كـانت تدلـج في ليـل بهيم. .

إن النهار الذي أطلعته حضارة الإسلام الآتية. . مـا كان لـه أن يـطلع لولا الشعلة التي مسّت عقـل كل مسلم ودفعتـه إلى التألق وهو ينطلق لتعزيز يقينه الجديد. . .



[٤]
النقلة المنهجية . . .

أما النقلة الثالثة، فلم تكن لتقل عنهما خطراً بحال من الأحوال. . وهي ترتبط بشكل ما، بالنقلتين السابقتين، وتنبثق عنهما في الوقت نفسه. . إنها النقلة المنهجية. . . ونحن نعرف اليوم ، كم يؤدي « المنهج » دوراً خطيراً في حركة الإنسان الفكرية. . والحضارة عموماً. . ونعرف أنه دون «منهج» فليس ثمة طريق يوصل إلى الأهداف مهما بذل من جهد وقدم من عطاء. . .

والنقلة المنهجية التي أتيح للعقل المسلم أن يتحقق بها، أن يتشكل وفق مقولاتها ومعطياتها. . امتدت باتجاهات ثلاثة: السببية، القانون التاريخي، منهج البحث الحسي (التجريبي).

فلنقف قليلاً عند كل واحدٍ من هذه الاتجاهات لنتلمس أبعاد المنحة الكبيرة التي قدمها الإسلام للعقل البشري، فمكّنه من إعادة التشكّل، وأعطاه من الأدوات ما عرف به كيف يحيلها إلى إبداع حضاري موصول.

(أ) السببية . . .

من خلال التمعن في نسيج كتاب الله نجد كيف منحت آياته

البينـات العقـل المسلم رؤيـة تـركيبيـة للكـون والحيـاة والإنسـان والـوجـود. . تـربط، وهي تتـأمـل وتبحث وتعـاين وتتفكـر، بـين الأسباب والمسببات. . تسعى إلى أن تضـع يدهـا على الخيط الـذي يربط بين الظواهر والأشياء في هذا الحقل أو ذاك، وفي هذه المسـاحة أو تلك. . لقد أراد القرآن الكـريم أن يجتاز بـالعقل العـربي مرحلة النظرة التبسيطية، المسطحة، المفككة التي تعـاين الأشياء والـظواهر كما لو كانت متقطعة معزولة منفصلاً بعضها عن بعض. . .

وهي خـلال ذلك لا تملك القـدرة على الجمـع، والمقـارنـة، والقياس، والتقاط عنـاصر الشبه، وعـزل عناصر الاختـلاف. . لا تملك إمكـانية الـتركيب والاختزال والـتركيز للوصـول إلى الدلالات النهـائية للظاهـرة من خلال معـاينة ارتبـاطها وعـلائقها بـالـظواهـر الأخرى. . .

ولقد تمكن القرآن الكريم بِطَرْقِهِ المُسْتَمِرِّ على العقليـة التبسيطية أن يعيد تشكيلها لتبعث من جـديد بـالصيغة التي أرادهـا لها: عقلية تركيبية، تملك القدرة على الرؤية الاستشرافيـة التي تطل من فـوق على حشـود الظواهـر بحثـاً عن العـلائق والارتبـاطـات، ووصولاً إلى الحقيقة المرتجاة. . .

بل إن إحدى طـرائق القرآن المنبثـة عبر سـوره ومقاطعـه من أقصاها إلى أقصاها، هي: التأكيد عـلى ضرورة اعتماد هـذه الرؤيـة

السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه. . إذ بدون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسببات فإن العقل المؤمن لن يكون قادراً على التحقق بالقناعات الكافية، ولن يكون بمقدور آيات الله المنبثة في الطبيعة والعالم والوجود أن تحدث فينا هزة الإيمان العميق المتمخض دوماً عن اكتشاف الارتباط المحتوم بين معجزة الخلق وبين الخالق. . .

لن يتسع المجال لاستعراض الآيات التي نادت المسلمين مراراً للتحقق بهذه الرؤية التركيبية، والربط بين الأسباب، فهي كثيرة جداً، خاصة في العصر المكي حيث كانت ضرورات التربية العقيدية تقتضي التأكيد على تكوين عقليات كهذه. . تقارن وتركب وتربط بين الأسباب. . .

ومن خلال هذا التأكيد، ذي الارتباط العميق بالموقف الإيماني عموماً، أصبح العقل المسلم يرىٰ في رؤية كهذه ضرورة من الضرورات، بل بداهة من البداهات. . وراح يمارسها صباح مساء، ويتمرن على الأخذ بها، والعمل وفق شروطها، حتى غدت بالنسبة له تقليداً سائداً. . . وغدا الكون والعالم والطبيعة والوجود ـ في مقابل هذا ـ سلسلة من الظواهر والمعطيات يرتبط بعضها ببعض بأوثق الأسباب. . .

لقد انتهى عهد التفكك، والعزلة، والتبسيط. . .

إن الكون الذي هو تعبير عن إبداع الخالق، تحكمه قوانين واحدة، وأسباب واحدة، ونواميس واحدة، تصدر عن إرادة واحدة. . .

ولن يتحقق فهمه أبداً ما لم ينظر إليه من خلال رؤية عقلية، تعرف كيف تجمع وتلم، وتقارن وتختزل وتركب. . . وصولاً إلى الحقائق التي تبغيها. . .

إن الكشف عن (السببية) والأخذ بشروطها المنهجية كسب كبير للعقل البشري، وإضافة قيِّمة مكنته من إعادة التشكل في صيغ أكثر قدرة على العطاء والإبداع. . .

(ب) القانونية التاريخية. . .

ولأول مرة في تاريخ الفكر يكشف الغطاء أمام العقل البشري عن حقيقة منهجية على درجة كبيرة من الخطورة : إن التاريخ البشري لا يتحرك فوضى وعلى غير هدف، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء. . سواء بسواء. . وإن الوقائع التاريخية لا تخلق بالصدفة، وإنما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك، وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك. .

القانون يحكم التاريخ. . تلك هي المقولة التي لم يكن قد

كشف النقاب عنها قبل نزول القرآن الكريم . . إن كتاب الله يقدم أصول «منهج» متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية ـ التاريخية، كما فعل ابن خلدون ـ فيما بعد ـ على سبيل المثال، فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ماتلقوا إشارته تلك وبنوا عليها إلّا بعد انقضاء خمسة قرون؛ وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء، وتواريخ الجماعات والأمم السابقة، وعلى وجود «سنن» و«نواميس» تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها، وانتقالها من حال إلى حال. ولقد وقع كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين في خطأ القول بأن (ابن خلدون) هو أول من مارس هذا (المنهج) وأنه لا توجد قبله أية محاولة في هذا السبيل.

إن «المنهج» الجديد الذي يطرحه القرآن الكريم يؤكد، أكثر من مرة، على أن «التاريخ» لا يكتسب أهميته الإيجابية إلّا بأن يتخذ ميداناً للدراسة والاختبار، تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها، وليس الأسلوب الفني في العرض سوى جسر تحمل عليه العروض والنتائج النهائية لأية ممارسة في حقول التاريخ . .

إن القرآن يطرح على العقل البشري - إذاً - ولأول مرة، مسألة «السنن» و«النواميس» التي تسيِّر حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطىء، وعبر مسالكها «المقننة» التي ليس إلى الخروج عليها سبيل، لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري، ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز وأخلاقاً وفكراً وعواطف ووجداناً، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الإنسان، والتي تتجاوز في اتساعها وشموليتها نسبيات البيئة الجغرافية، أو الوضع الاقتصادي، لكي تتسع للفعل التاريخي نفسه، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة في كيان الإنسان، والتي تنبثق عنها المواقف التاريخية سلباً وإيجاباً؛ ومن ثم فإن حكمها على هذه «الحركة» يجيء منطقياً تماماً، لأنه أشبه «بالجزاء» الذي هو من جنس «العمل»، ومن خامه الأصيل، وعادلاً تماماً لأنه يكافىء الإنسان، فرداً وجماعة، بما يوازي طبيعة الدور التاريخي الذي مارسه، حتى لكأن القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية، سلفاً، نتائجها التي تكاد تكون محتومة لارتباطها الصميم بمقدماتها اعتماداً على استمرارية السنن التاريخية ودوامها. .

وعلى العكس فإن أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن، سوف يؤول إلى تميّع الحركة التاريخية، وعدم انضباطها جزائياً، وبالتالي يؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل. . ومن أجل

أن نـطمئن يبين لنـا القرآن في أكـثر من مـوضـع ثبـات هـذه السنن ونفـاذها وعـدم تبدلهـا أو تحولهـا، إنها مـوجـودة أسـاسـاً في صميم التركيب الكوني، وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم. . ولم يفعل القرآن سوىٰ أن كشف عنها النقاب وأكد وجـودها وثقلهـا في حـركة التـاريخ، وأنها لا تـأسر نفسهـا في تفـاصيـل وجـزئيـات موقوتة، بل تمتد وتمتد، مـرنة منفتحـة شاملة، لكي تضـم أكـبر قدر من الوقائع، وتلامس أكـبر عدد من التفـاصيل والجـزئيات، وتبقى دائماً الحصيلة النهائية، والرموز المكثفة، والـدلالات الكبرى لحـركة التاريخ.

إنها تريد أن تقول لنا ـ باختصار وتركيز بالغين ـ إن حركة أية جماعة بشرية في التاريـخ ليست اعتباطيـة، وإنها، بما قـد ركب فيها من قوىٰ العقل والروح والإرادة ـ خلافاً لما هو سائـد في العوالم غـير البشرية ـ مسؤولة مسؤولية كاملة خلال حركتهـا تلك، حيث ينتفي العبث والـلاجدوىٰ، وحيث تتحـرك الحـريـة من شكلهـا المهـوش المتميع الغامض، إلى عمل مدرك مخـطط يقف به الإنسـان أمام الله بمسؤوليته تجاه العالم لكي يحقق إعماره ورقيـه وتقدمـه، وفق ما يجيء به أنبياء الله، حيناً بعد حين، من تعاليم وخـطط تأخـذ بيد الجـماعة البشرية في هذا الطريق. . وحيثما انتفت هذه العلاقـة الإيجابيـة بين الإنســان والله والعـالم، وأسيء استخــدام «الحـريــة»، وضـاعت المسؤوليــة، وانعـدم التخــطيط المــدرك الــواعي، وتميعت القيم

الأخلاقية المنبثقة عن قوى العقل والروح والإرادة، حيثما جاء الجزاء الموازي لجنس العمل، وآل الأمر بالجماعة البشرية إلى التدهور والتفتت والانهيار:

﴿سُنَّةَ ٱللهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٦٢).

﴿... فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ ٱلأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: ٤٣).

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٧).

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلأَوَّلِينَ أَو يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلاً﴾ (الكهف: ٥٥).

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً. سُنَّةَ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً﴾ (الفتح: ٢٢ ـ ٢٣).

السنن... والقرآن...

والقرآن الكريم لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي يفرض على الجماعة المؤمنة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة

إلى الدمار، وأن «تحسن» التعامل مع قوى الكون والطبيعة، مستمدة التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ. هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ. وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ. إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَٱللهُ لاَ يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ﴾(آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤١).

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَبَإِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٤).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُها﴾ (محمد: ١٠).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ، يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (السجدة: ٢٦).

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَاتُ﴾ (الرعد: ٦).

(ج) منهج البحث الحسِّي ـ التجريبي:

ولكن، لا الكشف عن السببية ولا القانونية التاريخية، يعدل الكسب المعرفي القيِّم الذي أحرزه العقل المسلم خصوصاً، والعقل البشري عموماً، والذي تمثل بمنهج البحث الحسي ـ التجريبي الذي كشف النقاب عنه، ونظمه، وأكّده، كتاب الله . . .

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم، وارتباطاتهم الكونية عن طريق «النظر الحسي» إلى ما حولهم، ابتداءً من مواقع أقدامهم وانتهاءً بآفاق النفس والكون، وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب... قال له: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أولئك كانَ عَنْهُ مَسؤولاً﴾ (الإسراء: ٣٦).

وناداه أن يمعن النظر إلى ما حوله.. إلى طعامه: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طعامِهِ * أنَّا صَبَبْنا الماءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنا الأرضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنا فيها حبًّا * وَعِنَبًا وقَضبًا * وَزَيتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدائِقَ غُلْبًا * وَفاكِهةً وَأبًّا﴾ (عبس: ٢٤ــ٣١).

إلى خلقه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ﴾؟ (الطارق: ٥).

إلى الملكوت: ﴿أوَلَمْ يَنْظُروا إلى مَلَكُوتِ السَّمواتِ والأرض﴾؟ (الأعراف: ١٨٥).

إلى التاريخ وحركة الإنسان في الأرض: ﴿أَفَلَمْ يَسيروا في الأرضِ فَيَنْظروا كَيفَ كانَ عَاقِبَةُ الذّين مِنْ قَبلِهِمْ كانوا أكثر مِنهُم قُوَّةً﴾ (غافر: ٨٢).

إلى خلائق الله: ﴿أفلاَ يَنْظُرون إلى الإبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؟(الغاشية:١٧).

إلى آياته المنبثة في كل مكان: ﴿انْظُر كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ﴾ (المائدة: ٧٥).

إلى النواميس الاجتماعية: ﴿انظُر كَيفَ فَضَّلْنا بَعضهُم عَلى بعضٍ﴾ (الإسراء: ٢١).

إلى الطبيعة وهي تنبعث من قلب الفناء برحمة من الله ومقدره: ﴿فانْظُر إلى آثار رحمَةِ الله كيفَ يُحيي الأرضَ بعْدَ موتِها﴾(الروم: ٥٠).

إلى الأثمار وهي تتدلى من غصون الأشجار: ﴿انْظُروا إلى ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ (الأنعام: ٩٩).

إلى الحياة الأولى كيف بدأت، وكيف نمت وارتقت: ﴿قُلْ سيروا في الأرضِ فانظُروا كَيْفَ بَدَأ الخلْقَ﴾ (العنكبوت: ٢٠).

ودعاه أن يحرك « سمعه » باتجاه الأصوات لكي يعرف ويميز، فيأخذ أو يرفض، فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان :

﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: ٢١).

وانتقل القرآن خطوة أخرى، وسألهم أن يحركوا «بصائرهم» تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية، سمعية وبصرية ولمسية. . . لا حصر لها، ومن ثم تتحمل البصيرة مسؤوليتها في تنسيق هذه المدركات، وتمحيصها، وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى «الحق» الذي تقوم عليه وحده نواميس الكون والخليقة:

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (الأنفال: ١٠٤).. إن العقل والحواس جميعاً مسؤولة، لا تنفرد إحداها عن الأخريات في تحمل تبعة البحث والتمحيص والاختيار. . والإنسان مبتلى بهذه المسؤولية لأنه من طينة أخرىٰ غير طينة الأنعام:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (الإنسان: ٢).

ومن ثم تتوالى الآيات، تؤكد مرة تلو المرة على أن السمع والبصر والفؤاد جميعاً هي التي تعطي للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها، وأن الإنسان بتحريكه هذه القوىٰ والطاقات، بفتحه هذه النوافذ على مصراعيها، باستغلاله قدراته الفذة حتى النهاية، سيصل قمة انتصاره العلمي والديني على السواء، لأن هذه الانتصارات

ستبوِّئه مركزه المسؤول سيداً على العالمين، وخليفة لله في الأرض، وأنه بتجميد هذه الطاقات، وقفل نوافذها، وسحب الستائر والأغشية عليها، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما أرادها الله يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد.. منزلة البهائم والأنعام:

﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ (محمد: ٣).

وحشد آخر من الآيات بلغ ما يقرب الخمسين، حث على تحريك «العقل»، المفتاح الذي منحه الله بني آدم، والذي يتوجب اعتماده لكي تمضي الكشوف والمعطيات التجريبية إلى غايتها:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧).. وآيات أخرى دعت الإنسان إلى «التفكير» العميق، المتبصر، المسؤول، بكل ما يحيط به من ظواهر وأشياء، وطاقات وموجودات:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؟ (الأنعام: ٥٠).

وما يقال عن «التفكّر» يمكن أن يقال عن «التفقه»، وهي خطوة عقلية أبعد مدىً من التفكير، تجعل الإنسان أكثر وعياً لما يحيط به، وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون، كما تجعله متفتح

البصيرة دوماً، مستعداً للحوار المسؤول إزاء كل ما يعرض له على صفحة العالم والوجود.

﴿فَمَا لِهَٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء: ٧٨).

وأكد القرآن على الأسلوب الذي يعتمد «البرهان» و«الحجة» و«الجدال الحسن» للوصول إلى النتائج الصحيحة، القائمة على الاستقراء والمقارنة، والموازنة والتمحيص استناداً إلى المعطيات الحسية الخارجية المتفق عليها، والقدرات العقلية التي تعرف كيف تتعامل مع هذه المعطيات:

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

هكذا يبدو العلم بمفهومه الواضح الشامل، فاعلية في غاية الأهمية في المجتمعات التي ترتضي الدين، أو المنهج الإلهي، طريقا لها في الحياة.. ولابد أن نضيف هنا حقيقة أخرى غاية في الأهمية، تلك هي أن كلمة «العلم» وردت في القرآن الكريم مراراً كمصطلح على «الدين» نفسه الذي علمه الله أنبياءه عليهم السلام.. على النواميس التي يسيِّر الله بها ملكوته العظيم.. على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله في «أم الكتاب»، وكإشارة إلى القيم الدينية التي نزلت من السماء في مقابلة الأهواء والظنون البشرية؛ ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في لغة القرآن؛ إن

كلمات الله سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة، وتبصرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة، الممتدة، المتداخلة كما أراد لها أن تكون، لا كما يريد لها الوضعيون الذين يسعون جهدهم للفصل بين الكلمتين:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ ٱلَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠).

﴿والرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ يَقُولونَ آمنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾ (آل عمران: ٧).

﴿مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ (النساء: ١٥٧).

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِنْدَ ٱللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ (الأحقاف: ٢٣).

ولا يسعنا هنا استعراض جل ما رد من آيات في هذا المجال، أو حتى الإشارة إليه، ويكفي أن نشير إلى أن كلمة ﴿عِلْمٍ﴾ بتصريفاتها المختلفة، وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمائة والخمسين.

ومن ثم فلا يتصورنَّ أحد أن الإسلام ما جاء إلا لكي يؤكد في موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الأخلاقية والروحية فحسب... إننا بإزاء آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية

بين الجزئيات والذرات. . إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع والكشف، بين التلقي عن الله والتوغل قدماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وغوامضها. . بين تحقيق مستوى روحي عالٍ للإنسان على الأرض وبين تسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم على المستوى المادي. . . ولم يفصل الإسلام - يوماً - بين هذا وذاك. . .

الفصل الثاني
أبعاد التحقق التاريخي

والنتيجة المحتومة التي تمخضت عن هذه التحولات الحاسمة عقيدياً ومعرفياً ومنهجياً. . تَشَكُّل عَقْلٍ جديد قدير على الاستيعاب والفعل والإضافة والإبداع. .

وهكذا، فإن النقلة أو التحول الحضاري الكبير الذي نفذه المسلمون، وتحققوا به عبر قرون التألق والعطاء، إنما جاء ثمرة «للعقلية» التي صاغها الإسلام ومكنها بتحولاته الخطيرة تلك من أن تؤدي دورها الشامل في تكوين وإغناء الحضارة الإسلامية. . .

ولم تكن هذه النقلة الحضارية، بحال، أقل خطورة من النقلات الثلاث التي مهدت لها وشقّت أمامها الطريق. . فلقد كانت على درجة من الثقل والامتداد ما جعلها أمراً تاريخياً مشهوداً،

قـدَّم إسهامـه المتنوع الغـزيـر، ليس فقط عـلى مستـوى الجغـرافيـة الإسلامية، وإنما جغرافية العالم الحضاري كلها. . .

إن الأفكـار، أو النشاط العقـلي، بعبارة أخـرى، هـو الـذي يسهم جنباً إلى جنب مع قوى الإنسان الأخرى وطاقاته المتشعبة، في صناعة الحضارات وليس العكس مما تقـول به بعض النـظريات التي أكدت رجعيتها آخر معطيات العلم الحديث. . صحيـح أن الصيغة الحضـاريـة تؤثـر في العمليـة العقليـة، وتـؤدي دوراً أكيـداً في توجهاتها. . . ولكن مفتاح الحركة، والكلمة الفاعلة فيها هي للعقل أولاً وأخيراً. . .

وهكذا فإن قيام الدين الجديد بتشكيل عقل إسـلامي فعال، بـالمواصفـات التي تحدثنـا عنها، ومن خـلال تحولات جـذريـة عـلى المستويات كافة، العقيدية والمعرفية والمنهجية. . كان بمثابة إرهـاص لمولد طاقة حضارية فذة، كان لابد أن «تلد» عطاءها المتواصـل بعد أن نضج الجنين في رحمٍ تهيَّأت له شروط الميلاد الميسور كافة. . .

واليوم فإنه ليس بمقدور قوة في الأرض أن تبعث المسلمين من جديد للفعل الحضاري ما لم تتهيأ الشروط والمواصفات نفسها. . ما لم تتحقق بالتحولات الحاسمة ذاتها: عقيدياً ومعرفياً ومنهجياً. . .

لقد شهد التاريخ حضارة الإسلام المبدعة. . . وكان الأمر في التحليل النهائي بمثابة تحقق في الزمان والمكان، للرؤية التي تنـزَّل بها

هـذا الدين، فـأعـاد من خـلالهـا صيـاغـة الـروح والقلب والعقـل والضـمير. . . ولولاها. . لما كان بمقدور العقل العربي، بمـواصفاتـه التقليدية القديمة، أن يفعل عشر معشار هـذا الذي فعله بعـد إعادة تشكله بالمؤثرات والتحولات التي صنعها الإسلام. .

ولقد امتد «الفعل الحضاري الإسلامي» لكي يغطي اتجاهات ثـلاثـة، انضفـرت في نهايـة الأمـر لكي تعـزِّز الـوجـود الحضـاري الإسلامي وتغنيه من جهـة، ولكي ترفـد مجرى الحضـارات البشرية بالعطاء المتنوع الواحد من جهة أخرى. . .

فأما أولىٰ هذه الاتجاهات فتتمثل باحترام الحضارة الإسلاميـة للتراث الحضاري البشري الذي سبقها وعاصرها. . ولم يكن العقل الإسلامي الجديد بالذي يتشنج في دائرة الذات، وينقفل على حدود الأنا. . . بل لقد علمته العقيدة التي أعادت تشكيله تقاليد الانفتاح المـرن على كـل حضارة، أو إنجـاز مادام أنـه قد يتضمن جـانباً من الحكمـة التي يتحـرق العقـل بحثـاً عنهـا. . . ولقـد أصبحت هـذه التقاليد بالنسبة إليه ممارسات يومية، وعادات سائدة، امتـدت لكي تغطي مسيرته الطويلة.

الانتقاء الحضاري. . .

لم يكن هـذا «العقل» يـرفض معـطيـات «غـيره»، ولكنـه في

الـوقت نفسه لم يكن يتقبلهـا بالكليـة. . لقد كـان يملك في تـركيبـه الخاص، ومن خلال منظوره العقيدي، المقـاييس الدقيقـة والموازين العادلة التي يمرر من خلالها تلك المعطيات، فيعرف جيداً ما يـأخذ، ويعرف جيداً ما يدع. . .

إنه كان يمـارس عملية بنـاء الذات الحضـارية، مستفيـداً إلى أقصى حدّ، من خبرات الآخرين.

كـل الحضارات البشريـة، سواء انبثقت عن رؤيـة دينية، أم موقف وضعي. . صاغها المؤمنون أم صنعها الكفار. . كانت تجد في حضارة الإسلام صدراً رحباً. . .

كـل الحضارات العـالمية: يـونانيـة، ورومانية، وبيـزنـطيـة، وهلّلينية، وفارسية، وهندية، وتركية وصينية. . . وتراث الجماعـات والشعـوب التي عاشت في المنـطقـة: آراميـة، ونبـطيـة، وقبـطيـة، وفينيقية. . إلى آخره. . . كانت ـ جميعاً ـ بمثابة حقول مفتوحـة جال في أطـرافهـا العقـل الإسـلامي، فـأخـذ ورفض، وانتقى ومحّص واختبر، وعزل واستبعـد وفصل. . وعـرف، وهو يتجـول عبر هـذه الحقـول الشاسعـة، ما الـذي ينسجم ونسغه الصـاعد ويـزيده دمـاً وحيـاة، وما الـذي يحمل جـراثيم المـرض والهـزال، والـدم الأزرق الفاسد، فكان يعرف جيداً كيف يرفض هذا ويأخذ ذاك. . .

لم يكن مجـرد اقتبـاس، ولكنـه هضم وتمثـل، وتـطعيـم

مرسوم. . . هدفه الخروج على الناس بألف نوع من الفاكهة والثمار. . مختلفة الأشكال والطعوم ولكنها تسقى بماء واحد!! . .

إن هذا الموقف الحضاري المتبصر، المرن، الموزون. . . حقق مردوده الإيجابي الفعال ليس على مستوى الحضارة الإسلامية فحسب، ولكن عبر نطاق الحضارات جميعاً. . العناصر الطيبة الصالحة في هذه الحضارات بعبارة أدقّ. . وهو خلال هذا كله إنما كان يؤدي وظيفة لم تؤدها من قبل حضارة أخرىٰ بهذه السعة والعمق: حماية التراث الحضاري البشري، وتمكينه من البقاء في مواجهة تحديات السقوط والنسيان والفناء. . .

يقول لويس يونغ:

«. . وهكذا أصبح المسلمون في المناطق الجديدة لامبراطوريتهم على صلة تامة بحضارة واسعة، تضم بين ظهرانيها أدباً واسعاً مكتوبا باليونانية والسريانية والبهلوية، إلى جانب استيعاب للعلوم لم يكن لعرب الجاهلية أن يعرفوه. . لقد صبّت جداول كثيرة في نهر الحضارة الإسلامية، ولعل أشدها تأثيراً رافد الحضارة الهيللينية، ثم الحضارة الفارسية التي أثرت في الفكر السياسي والعادات الاجتماعية، والحضارة الهندية التي أسهمت في علوم الطب والفلك، . وخاصة في الرياضيات حيث أخذ العرب الأرقام الهندية، وقد أخذ العرب بعض التنظيمات الإدارية والسياسية التي كانت قائمة في البلدان المفتوحة، مثل «ديوان

الحسبة» الذي هو امتداد للمؤسسة البيزنطية، وفكرة «المصلحة العامة» التي هي امتداد لـ Utllitas publica في التشريع الروماني؛ كما أخذوا بعض المناصب السياسية مثل «الوزير» من الفرس.

. . . ولقد فتح «العرب» أبوابهم على اتساعها لاستيعاب المعارف والثقافات القديمة، من يونانية وغيرها، مما قاد إلى نهضة كبرى في مجال الترجمة. . ولعل من أهم دوافع الترجمة: هو حث الإسلام على المعرفة، ودعوته لتلقي العلم، وجعل ذلك أمنية عظمى في الحياة. . وقد تعرف المسلمون من خلال الترجمة على جوهر الفلسفة القديمة والطب والعلوم الطبيعية اليونانية. . . وهكذا كان مجال الترجمة واسعاً، حتى إن الكثير من الأعمال اليونانية وصلت إلى أوروبا عن طريق الترجمة العربية فقط، لأن النسخ اليونانية الأصلية فقدت. . إن تطوير المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافي في العالم؛ وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة. . .»[١].

ويقول غرونباوم:

«. . . وكانت نتيجة هذه الخصومة والتنازع أن خرجت إمكانات الإسلام الفلسفية والعملية إلى حيز الفعل؛ وعبروا عنها

(١) العرب وأوروبا، ترجمة ميشيل أزرق ص ٣٤ ـ ٣٦ (مقتطفات)، دار الطليعة، بيروت ـ ١٩٧٩م.

من جديد في صيغ مقبولة لدى ممثلي التقاليد الأقدم عهداً التي كان على الحضارة الدينية الجديدة أن تتعامل معها. فالتفكير الإداري والسياسي من فارس، والطرائق الهلّنستية في التفلسف والعلم الدنيوي، والطب والرياضيات من الهند، كل ذلك قد تمثلوه واستوعبوه بغير عناء. وإن التعريب اللغوي لكل ما اقتبسوه من هذه الأمور ساعد على تمثلها، وحينما توضع وجهة النظر الأجنبية في داخل إطار إسلامي وبتعابير إسلامية يكون الإحساس بها إسلامياً صادقاً؛ ومن جهة أخرى فإن التوضيح التدريجي بحقائق الدين الأولى أخذ يساعد على توسيع الأساس الذي يقوم عليه التبادل بين الحضارات؛ وهكذا نجد أن ازدهار الحضارة العباسية بين [٧٦٠ - ٨٤٠م] إنما يمثل امتزاجاً ثانياً للحضارة الإسلامية، وقد فسحوا المجال فيها للتقاليد «المحلية» التي استمدوا جزءًا منها من الكتب، إلا أن معظمها داخل في التركيب الجديد عن سبيل حقائق التعايش الفعلي...»(٢).

ويقول دي لاسي أوليري:

«... لقد أصبح العرب، بحكم كونهم حكاماً لسورية، على اتصال بثقافة متطورة إلى حد بعيد، استخدموها في عدة

---

(٢) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، تأليف عدد من المستشرقين، تحرير جي. إي. غرونباوم، ترجمة د. صدقي حمدي ص ٣٨ - ٣٩، مكتبة دار المتنبي، بغداد - ١٩٦٦م.

مجالات: في بناء المجتمع والنظام الاجتماعي بشكل عام، وفي الفنون والحرف، وفي الحياة العقلية؛ وكان الأثر الإغريقي وثيق الصلة بهم، إلا أن العنصر الفارسي كان أوثق صلة... وهكذا فقد كانت هذه الفترة (الراشدية والأموية) فترة إحياء دائم إلى حد ما، أخذت خلالها العناصر المختلفة عن العرب لغة جديدة وديناً جديداً، وتساوت الآن في ظل الخلافة والتحمت فيما بينها في حياة مشتركة، ومهما بلغت شدة الخلافات الطائفية والسياسية فيما بعد، فقد ظلت سيادة الإسلام تنشر لواءها مدة طويلة، ولا تزال كذلك إلى حد كبير، وتتمتع بحياة مشتركة، بمعنى أنه يوجد تفهم واعٍ بين مختلف الأنحاء؛ وهكذا استطاع التأثير الفكري أو الديني أن ينتقل بسرعة من أحد الأطراف إلى الطرف الآخر، كما أن واجب الحج إلى مكة قد أدىٰ الكثير في تفتح الحياة المشتركة في نفوس هذه الجماعة، وترويج الحوار بين مختلف أجزاء العالم الإسلامي... فالحياة العامة في الإسلام مبنية إلى حد كبير على استعمال اللغة العربية، كوسيلة في الحياة العامة... وكان هذا ذا أثر في منتهى الفعالية قبل إدخال عناصر كبرىٰ من الأتراك والهنود الذين لم يصبحوا قط من الناطقين بالعربية، فكان هذا السبب هو الذي جعل الجماعة الإسلامية الناطقة بالعربية وسيلة مناسبة للنقل الثقافي...»[٣].

---

(٣) الفكر العربي ومركزه في التاريخ. ترجمة إسماعيل البيطار، ص ٦٢ - ٧٦ - ٧٧، دار الكتاب اللبناني، بيروت - ١٩٧٢م.

ويقــول:

«. . . كـانت أولى وأكـثر دلائـل التكيف الجـديـد في الفكـر الإسلامي هو الإنتاج المتزايد في ترجمـة الكتب التي تعالـج المواضيـع الفلسفية والعلمية إلى العربية، وكانت حصيلة ثمانـين عامـاً من بعد سقوط الأمويين امتلاك العـالم الناطق بـالعربيـة نسخاً عـربية لأكـثر كتب أرسطوطاليس، وكبار شراح الأفلاطونية المحدثة، وبعض آثار أفلاطون، والقسم الأعظم من أعمال جالينوس، ومؤلفات أخرىٰ في الطب وشروحها، وكذلك بعض الكتب اليونانية العلمية الأخـرى، وكتباً هندية وفارسية عديدة. . .»[٤].

أثر العرب في حضارة أوروبه :

ويقول غوستاف لوبون:

«. . . كلما أمعنـا في درس حضارة العـرب وكتبهم العلمية، واختـراعاتهم وفنـونهم ظهرت لنـا حقائق جـديـدة وآفـاق واسعـة، ولسرعـان ما رأينـا أن العرب أصحـاب الفضل في معـرفـة القـرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جـامعات الغـرب لم تعرف لهـا، مدة خمسـة قرون، مـورداً علمياً سـوى مؤلفاتهم، وأنهم الـذين مدّنـوا أوروبا مادة وعقـلاً وأخلاقاً. وتأثير العرب عـظيم في الغرب، وهـو

---

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٩٣.

في الشرق أشد وأقوى. . .»[٥].

ويقول

«. . . الحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ﷺ، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها، ككتاب أبولونيوس في المخروطات، وشروح جالينوس في الأمراض السارية، ورسالة أرسطو في الحجارة، إلخ . . . وأنه إذا كانت هناك أمة نقرّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً، قال مسيو ليبري :

«. . . لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبة في الآداب عدة قرون. . .».

وعرب الأندلس وحدهم، إذاً، هم الذين صانوا العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان، حتى في القسطنطينية، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلادٌ يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعاً، وإلى بلاد

(٥) حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الثالثة، ص ٢٦، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٩٥٦م.

الأندلس. . . كان يـذهب أولئك النصـارىٰ القليلون لطلب العلوم في الحقيقة. . . ولم يظهـر في أوروبا، قبـل القرن الخـامس عشر من الميـلاد، عـالم لم يقتصر عـلى استنسـاخ كتب العــرب، وعـلى كتب العـرب وحدهـا عوّل روجـر بيكـون، وليـانـورد البيـزي، وأرنـود الفيلنوفي، وريمون لول، وسان توما، وألـبرت الكبير، والاذ فـونش العاشر القشتالي. . إلخ»[٦].

وجـاء في كتـاب «الحضـارة الأوروبيـة سيـاسيـة واجتـماعيـة وثقـافيـة» لمؤلفيـه أسـاتـذة الفلسفـة: جيمس وستفـال تـوســون، وفرانكلن شارلز بام، وفان نوستراند:

«. . . في خلال قرنين نقل إلى العربية كل ما خلفـه الإغريق من الـتراث العلمي عـلى التقــريب، وأصبحت بغـداد والقــاهـرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لـدراسة العلم وتلقينـه. . . وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربيـة تتسرب إلى أوروبة الغـربية في أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثـاني عشر. . . وتسابق الـرجال من ذوي العقول اليقظىٰ إلى باليرمو وطليطلة لتعلم اللغـة العربيـة، ودراسة العلوم العربية، مثل: أديـلاردف أوف بات، ودانيـال أوف مـورلي، وروجر أوف هـيرفورد، واسكنـدر نكوام. وكـانت رسالـة أديـلارد أوف بات في المسـائـل الـطبيعيـة أول مؤلف علمي أنتجتـه

---

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩.

أوروبـا الغربيـة في القرون الـوسطى، وقضى بعض الـطلاب سنين عدة في إسبانيا، ثم قضوا أعمارهم كلها في هذا العمل المقصـور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللاتينية.. وعلى هذا النحو كـانت أوروبة قد استولت في مستهل القرن الثالث عشر على محصول العلم الإغريقي والعربي بحذافيره...»[٧].

وليست هذه سوى نماذج، وهنالك غيرها مئات الشواهد بـل ألوفها!!..

الإبداع بعد الانتقاء..

لكن العقـل المسلم لم يقف عند هـذا الحد.. كـانت هنالـك وظيفة أخرى تنتظره، وتعد بمثابة النتيجة المحتومة لشروط قد توفرت سلفـاً، ولقد أحسن تنفيـذها حقـاً: الإضافـة والتجـديـد والإغنـاء وإعـادة التركيب لمعطيات حضـارية كـانت بأمس الحـاجـة للتغيـير والتبديل وتوسيع نطاق البناء، بعد إذ لم تعد صـالحة تمـاماً لحـاجات العصر الجديد، ومطالب الإنسان المؤمن الجديد.

إن كثيراً من القيم الحضارية القديمة كانت يومها قد أصبحت أمـراً «رجعياً» وكـانت حركـة الإسـلام «التقـدميـة» تقضي بضرورة

---

(٧) عباس محمود العقاد: أثر العـرب في الحضارة الأوروبيـة، الطبعـة الثانيـة، ص ٤٥ ـ ٤٦، دار المعارف، القاهرة ـ ١٩٦٠م.

تغييرها واستبدالها بعناصر جديدة أكثر صلاحية وانسجاماً مع إيقاع الحياة التي صاغها الإسلام . .

ليس هذا فحسب، بل إن العقل الإسلامي المتحضر قدر على أن يكتشف ويبتكر عناصر وقيماً حضارية جديدة بالكلية، وأن يقدمها للعالم ثماراً يانعة لجهده الخاص، فليس كل ما صنعه المسلمون هو حماية التراث الحضاري القديم، وإعادة شرحه وتفسيره، وإضافة بعض الشروح والهوامش عليه . . وكأن ذلك التراث هو الطريق الوحيد لكل إبداع حضاري، وكأنه حتمية مقفلة لن يستطيع عقل أن يشذ على مواضعاتها، ويخرج عن حدودها المرسومة . . .

لقد أبدع العقل الإسلامي، ابتداء، قيماً جديدة، وابتكر واكتشف الكثير الكثير من المعطيات والنظم الحضارية التي كانت بمثابة الأسس التي بنت عليها فيما بعد حضارات أخرى في مشارق الأرض ومغاربها . . .

وهكذا فإن الدور «الإغنائي» للحضارة الإسلامية يتوجب أن يعالج من خلال هذا المنظور الواسع، وألا يغمط حقه وهو يقلّص، لهذا السبب أو ذاك، لكي يغدو مجرد تابع أمين وذكي لمعلمي اليونان القدماء، قدير على فهمهم وطاعتهم وشرح غوامضهم . . وليس ثمة وراء هذا أية محاولة للنقض والهدم والتبديل . . أو لإبداع قيم

ومعطيات وتقاليد جديدة لا علاقة لها البتة بحضارات الأقدمين.

ولقد كانت الرؤية الجديدة قديرة على التألق والابتكار... وكان العقل الإسلامي جديراً بالمهمة.. وهكذا صنع الذي صنع...

والشهادات عن دور العقل الإسلامي في إغناء الحضارات البشرية، والإضافة عليها، وارتياد الآفاق المجهولة واكتشاف القيم المعرفية والتجريبية الجديدة، كثيرة غزيرة.. صدرت عن كتّاب ودارسين وعلماء وأكاديميين شرقاً وغرباً، بحيث يصعب على المرء أيها يأخذ وأيها يدع... ولكن لا بأس في اقتباس نماذج فحسب من هذا الخضم العميق لكي تكون بمثابة مؤشرات على درب العطاء الطويل...

● لويس يونغ:

«... إن تطور المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافي في العالم، وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة؛ يجب أن لا تغيب عن ذهننا ـ إذ نناقش ونقيم الحضارة الإسلامية ـ تلك الأفكار المبدعة التي جاءت من الجزيرة العربية مع الإسلام وقبله، واستطاع المسلمون أن يمزجوا بها التراث اليوناني فيصنعوا من

ذلك لوناً جديداً سباقاً فريداً. . .»[٨].

«. . . ما الذي تركته حضارة العرب والمسلمين في أوروبا؟ لقد تركت بصماتها على جميع المستويات ابتداءً ببعض العادات الشعبية، وانتهاءً بالعلوم حيث يستخدم ملاحو الفضاء اصطلاحات عربية، مثل: السمت «Azi muth»، و«سمت الرأس Zenith»، وهناك في خرائط القمر أكثر من موقع أطلق عليه أسماء لبعض العلماء العرب: كالزركلي، والبتاني، وأبي الفداء. . إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية. . .»[٩].

● سارتون:

«. . . حقق المسلمون، عباقرة الشرق، أعظم المآثر في القرون الوسطى. فكتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية؛ وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري، حتى لقد كان ينبغي لأي كان إذا أراد أن يلم بثقافة عصره، وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها. . .»[١٠].

---

(٨) العرب وأوروبا ص ٣٦.
(٩) المصدر السابق نفسه ص ١٠.
(١٠ ـ١٣) جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، الصفحات ١٧٠ ـ ١٧١ . ١٩٢ ـ دار الرائد، بيروت ـ ١٩٦٧م.

● سيـديو :

«.. تكـونت فيما بـين القرن التـاسع والقـرن الخـامس عشر مجموعة من أكبر المعارف الثقـافية في التـاريخ ؛ وظهـرت منتوجـات ومصنـوعات متعـددة واختراعـات ثمينـة تشهـد بـالنشـاط الـذهني المدهش في هذا العصر، وجميع ذلك تأثرت بـه أوروبة بحيث يؤكـد القول :

إن العرب كانوا أساتذتها في جميع فروع المعرفة. لقـد حاولنـا أن نقلل من شـأن العرب، ولكن الحقيقـة ناصعـة يشع نـورهـا من جميع الأرجاء، وليس من مفر أمامنا إلا أن نرد لهم مـا يستحقون من عدل إن عاجلاً أو آجلاً»[11].

● دريبـــر :

«... ينبغي علي أن أنعي على الطريقة الرتيبة التي تحـايل بهـا الأدب الأوروبي ليخفي عن الأنـظار مآثـر المسلمين العلميـة علينا؛ أما هذه المآثر فـإنها على اليقـين سوف لا تـظل كثيراً بعـد الآن مخفية عن الأنـظار؛ إن الجور المبنى عـلى الحقد الـديني والغرور الـوطني لا يمكن أن يستمر إلى الأبد...»[12].

(١٠ ـ١٣) جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبيـة، الصفحات ١٧٠ ـ ١٧١ . ١٩٢ ـ دار الرائد، بيروت ـ ١٩٦٧م.

● نيكلسـون:

«. . . إن أعمال العرب العلمية اتصفت بالدقة وسعة الأفق، وقد استمد منها العلم الحديث ـ بكل ما تحمل هذه العبارة من معان ـ مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض. . .»[١٣].

من منجزات المسلمين العلمية. . .

ونـريد الآن أن نؤشر فحسب على عدد من الإضافات الإسلامية في بعض الحقول العلمية الصرفة. . أما الإنجازات بتفاصيلها فيمكن أن يجدها القارىء في أكثر من كتاب. . .

●● في الرياضيات:

أسهم المسلمون في إغناء المعرفة الإنسانية، وقد تابعوا دراسة علم الحساب إلى مدىً بعيد. . . فالدولة الإسلامية تطلبت تقديرات حسابية لتنفيذ أحكام الزكاة، والجزية، والخراج، وتقسيم الإرث. . . كما نصَّ على ذلك القرآن الكريم. .

في الجبر، برز محمد بن موسى الخوارزمي (توفي ٨٥٠م]، الذي يعود إليه تأسيس علم الجبر، وهو الذي تعمق في هذا العلم

(١٠ ـ١٣) جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، الصفحات ١٧٠ ـ ١٧١ . ١٩٢ ـ دار الرائد، بيروت ـ ١٩٦٧م.

مدى أبعد من الإغـريق، وكتابـه «كتاب الجـبر والمقابلة» قـدم للعالم تعبيراً خاصاً عن هذا الفرع من الرياضيات. . . ويعد كتابـه أفضل كتاب في مادة الجبر حتى الأزمنة الحديثة.

وأدخل البتاني (توفي عام ٩٢٩م] النسبـة في علم المثلثات كـما هي معروفة اليوم؛ وتبعه عالم عربي لامع في الرياضيات هو أبو الوفا [تـوفي ٩٩٧م] الذي اكتشف معـادلة لجمـع الزوايـا. . وهو الـذي اكتشف أيضاً الخط الذي يقطع القوس.

أما الهندسة، فقد كانت متقدمـة عند المسلمـين، وهـم الذين استخدموهـا في مجالات عمليـة، كالمسـاحة وإنشـاء طواحـين الماء، إضافة إلى استخدامهم إياها كثيراً في أغراض الزينـة في فنهم؛ ولعل أهم إسهام للعرب في حقـل الريـاضيات كـان إدخالهم الـرموز التي سمـوها «الأرقـام الهنـديـة». . . والمسلمـون هم الـذين بسـطوهـا وجعلوها طيِّعة بحيث قبلها العالم على مرّ العصور.

●● في الفيزياء:

عـارض ابن الهيثم [تـوفي ١٠٣٩م]، الـذي بـرز في علم البصريـات، إقليـدس وبـطليمـوس في زعمهـما أن العـين تـرسـل اشعاعات إلى الشيء المنـظور تمكن من رؤيته، وأصر عـلى أن عملية الرؤية تحدث عندمـا يرسـل المنظور إشعـاعات تـدخل العـين، وقد

وجد لدى تفحصه قدرة القمر على الإشعاع، أن القمر ليس بالجسم الصقيل كالمرآة، ومن ثم اكتشف أن جميع الأجسام الملونة تعكس الضوء، وأن الضوء واللون متطابقان؛ ولإثبات فرضياته قام بتجارب أدّت به إلى اختراع آلة التصوير، وتشير الأبحاث الحديثة في مخطوطاته إلى أنه كان مدركاً تمام الإدراك دور الرياضيات في نظريته في البصريات، وقد خلص الباحثون إلى اعتباره بكل جدارة مؤسس علم الفيزياء بالمعنى الحديث للكلمة.

أما البيروني [توفي ١٠٥٠م] فقد اكتشف عن طريق التجربة عدداً من الجاذبيات المحدودة بوساطة ما أسماه «المخروط»، ويعد هذا أول مقياس للثقل النوعي.

أما الخازني [توفي ١١٠٠م] فقد استخدم مقياساً للكثافة شبيهاً بذلك المقياس الذي استخدم قديماً في الإسكندرية للتحري عن خواص السوائل، كما بحث مشكلة كثافة الماء عند منتصف الكرة الأرضية، تلك المشكلة التي تناولها بعينها روجر بيكون.

●● في علم الفلك، الذي لقي ترحيباً كبيراً لدى المسلمين بسبب اهتمامهم «بعلم الميقات» الذي يحدد مواعيد الصلاة واتجاه مكة المكرمة.. برز عدد من العلماء منهم: الفزاري [توفي ٧٧٧م]، الذي أنشأ الاصطرلاب، ثم البتاني [توفي٩٢٩م]، الذي قام ببعض الأرصاد الفلكية الهامة وبعض المقاييس، وتبعه عمر الخيام

[توفي ١١٢٣م]، الذي صمم تقويماً جديداً هو التقويم الجلالي، وقد أخطأ الخيام بيوم واحد في كل خمسة آلاف سنة؛ أما أبو معشر [توفي ٨٨٦م] فقد بحث بشكل دقيق في العلاقة بين المد والجزر وحركة القمر.

إلا أن أهم إنجازات المسلمين في علم الفلك تتمثل في تصميمهم المرصد.

وعلى الرغم من أن الإغريق صمموا أدوات فلكية، منها: الاصطرلاب، إلا أن المرصد بشكله المخصص والمنظم لم يظهر للوجود إلا في العصر العباسي.. وقد استخدمت فيه أدوات من مثل: ذات الربع، والاصطرلاب، والمحلق، والكرات الهندسية...

●● في الكيمياء: «حيث لم يستطع الأقدمون التمييز بينها وبين الصيدلية لعدة قرون»، أجريت تجارب متقدمة، وقطعت أشواطاً أكبر مما تكهن به الإغريق، وبرز عدد من الكيماويين، كان من أبرزهم: جابر بن حيان [توفي حوالي ٨١٥م]، الذي أجرى عدداً من التجارب على المواد العضوية الحيوانية والنباتية.. وسجل ملاحظاته وتجاربه التي أدت إلى تحضير حامض الآزوت لأول مرة في التاريخ؛ وقدم وصفاً كاملاً لعملية تحضير الفولاذ، وتصفية المعادن الأخرى، وعملية صبغ الأقمشة ودباغة الجلود والدهان لصنع

الملابس الواقية من الماء، وكيفية حماية الحديد من الصدأ؛ كما عرف صناعة حامض الخل إلى جانب وصفه بدقة بعض العمليات الكيماوية، كالتبلور والانحلال والتكرير.

وكان الرازي، رغم شهرته في ميداني الطب والفلسفة، ذا قدم راسخة في مجال الكيمياء؛ إلا أن اهتمامه تركز على الكيمياء المختبرية أكثر من الكيمياء العامة وفرضياتها. وهو صاحب مذهب في دراسة الكيمياء أخذ يوسع مجال المعرفة الكيماوية شيئاً فشيئاً بجهود الباحثين في هذا المضمار؛ وقد استخدم عدة مواد في تجاربه، منها: كل المعادن المعروفة في عصره، وهو أول من وضع نظاماً لتصنيف الحيوان والنبات والمعدن.

هنالك أيضاً أبو منصور موفق، أول كيماوي ميز بين كربونات الصوديوم وكربونات البوتاس، وقد شرح كيف يعطي الجص إذا سخن نوعاً من الكلس لتضميد كسور العظام، وتعرف هذه المادة اليوم بجص باريس، وتستخدم كثيراً في الصناعة، وخاصة صناعة القوالب. . .

ولقد دأب الكيماويون المسلمون على تجاربهم بكل حرية إلى أن توصلوا إلى الكشوف العلمية التي أدت بدورها إلى تطور الكيمياء بشكلها المعاصر.

●● في علم النبات: نلتقي بعالم الطبيعة القرطبي أبو جعفر

الغافقي [توفي ١١٦٥م]، الذي قام بجمع مجموعات من النبات من إسبانيا وشمالي افريقيا، وأطلق عليها تسميات بالعربية واللاتينية والبربرية، ووضعها بدقة في كتابه «الأدوية المفردة»، كما نلتقي بالصيدلي وعالم النبات العظيم ابن البيطار [توفي ١٢٤٨م]، الذي اعتمد في كتابه على أعمال الغافقي، وارتحل إلى شمالي افريقيا وإلى سورية باحثاً في حياة النباتات، وقد ذاعت شهرته من خلال كتابيه «المغني في الأدوية المفردة» و«الجامع في الأدوية المفردة» اللذين يبحث أولهما في المواد الطبيعية، ويبحث ثانيهما في الحيوان، والنباتات، والمواد المعدنية ذات الخواص الطبية. وقد صب عنايته على المعلومات التي زوده بها سابقوه، ولكنه أضاف ثلاثمائة مادة جديدة إلى المواد المكتشفة سابقاً، وعددها: ألف وأربعمائة.

●● في الطب: اقتبس الأطباء المسلمون عن الإغريق النظريات الطبية التي تشكل قاعدة ثابتة ومُرضية لعلاج المرضىٰ، إلا أن الأطباء المسلمين ركزوا على الأمور العملية بدلاً من النظرية في العلاج الطبي، وقاموا بكثير من الاكتشافات الطبية، وأحرزوا تقدماً كبيراً في فن الاستطباب؛ وكان من أشهر هؤلاء الأطباء: الزهراوي [توفي ١٠١٣م]، الذي يضم كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» قسماً عن الجراحة يعتبر أعظم إسهام في هذا الموضوع في القرون الوسطى، والرازي [توفي ٩٢٥م]، الذي كان أول من ميز بين مرضي الجدري والحصبة، وذلك في كتابه «في الحصبة

والجدري»، أما كتابه الكبير «الحاوي» فيعتبر موسوعة طبيـة يلخص فيـه معارف الإغـريق والفرس والهنـود في الطب، ويضيف بعـدهـا ملاحظاته الشخصية. . أما في طب العيون فهنالك عـلي بن عيسى، وعمار الموصـلي «وكلاهمـا عاش في النصف الأول من القـرن الحادي عشر»، وقد ألَّف كل منهما الكتب حول الطب، ووسَّعا دائرة المعرفة الطبية اليونانية، وأضافا التعليمات العديدة حول إجراء العمليـات، كما أضافـا ملاحـظاتهما الشخصيـة. . . وإلى الأطباء المسلمـين يعود اخـتراع الأدوات الجراحيـة ونظام فحص المـريض بشكـل كـامـل، ووصف العديد من الحالات الطبيـة والأمراض، كـما كانـوا يملكون مـوهبة نـظرية وعمليـة في تصنيف علوم الطب وتقـديم نتائجهم في كتاب عملي واضح للطلاب وللأطباء معاً؛ غير أن أكبر إنجـاز طبي للمسلمـين يتجلىٰ في إنشـاء المستشفيات وإدارتهم إيـاها عـلى أكمل وجه، وفق نظام دقيق لا يزال يُعمل به حتى الآن.

●● في علم الجغرافيا: صحح المسلمون في كثير من الأحيان معـطيات الجغـرافيا الإغـريقية، بعـد أن قـام الـرحـالـة المسلمـون بكشـوفهم الجديـدة في الأصقـاع البعيـدة؛ وقـد امتـد شمـول علم الجغرافية العربي من الجزائر إلى الخالدات غرباً إلى كوريـا، واحتمال وجود اليابان شرقاً. وأصـدر الجغرافيـون الكتب التي تصف الطرق والمدن الإسلاميـة، وأسهموا في تـوسيع مجـال علم الجغرافيـا؛ ومن أبرز هؤلاء: المقدسي [توفي ١٠٠٠م]، في كتابه «أحسن التقاسيم في

معرفة الأقاليم» الذي تضمن بحوثاً في المناجم، واللغات المحلية، وعروق البشر، والعادات القومية، والديانات والأوزان والمقاييس.. الخ.. كما كان هناك جغرافيون هامون في القرن العاشر هم: البلخي، والإصطخري، وابن حوقل.

وعرف القرن الثاني عشر أعظم عمل جغرافي عربي منظم في كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي [توفي ١١٦٦م]، الذي عمل في بلاط الملك النورماندي روجر الثاني ملك صقلية في باليرمو؛ ويضم كتابه العظيم أعمال الجغرافيين السابقين، كما يضم المعلومات التي رواها الرحالة، ويشير الكتاب إلى افتراض أن الأرض كروية.. وبصورة عامة فإن أهمية الجغرافيين المسلمين تكمن في رسمهم الخرائط الجغرافية، ووصفهم التفصيلي لمناطق خاصة ـ أي الجغرافية المحلية ـ ويعود إليهم فضل حفظ النظرية القديمة القائلة بكروية الأرض(١٤).

---

(١٤) لويس يونغ: العرب وأوروبا ص ٧٢ ـ ٧٤، مقتطفات من ص ٩٨ ـ ١٠٦، وانظر عن إسهامات المسلمين العلمية بالتفصيل: جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ٢٠٣ ـ ٣٥١، العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، د. أحمد عيسى: آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب، د. علي عبدالله الدفاع: إسهام علماء المسلمين في الرياضيات، د. عبدالحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، د. ياسين خليل: التراث =

●● أما في مجال العلوم التطبيقية: فيكفي أن نشير إلى دور الحضارة الإسلامية في تطوير استخدامات الري والميكانيك، وتحسين صناعة الورق، وتكرير السكر واختراع البارود(١٥)... وغيرها الكثير...

وليس ثمة من داعٍ لاستعراض، أو حتى للإشارة، إلى إسهامات المسلمين الكبيرة في حقول العلوم الإنسانية، كالتاريخ، والاقتصاد، والقانون، والسياسة، والتربية، والنفس، ومناهج البحث، والاجتماع، والنظم الإدارية، والآداب والفنون.. إلى أخره، وتأثيراتها في مجرى الحضارات البشرية، وخاصة الحضارة الغربية، فهي أوضح للعيان وأشد حضورا من أن يشار إليها أو يدلّل عليها...

= العلمي العربي، عبدالله الجراري: تقدم العرب في العلوم والصناعات، حكمت نجيب عبدالرحمن: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، إدوارد جي براون: الطب العربي، د. توفيق الطويل: العرب والعلم، الدوميلي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، كارلو بللينو: علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، ماجد عبدالله الشمسي: مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية، دائرة المعارف الإسلامية.. إلى آخره..

(١٥) انظر: جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ٣٣١ - ٣٥١.

النقل الجغرافي والانتشار . . .

وثمة الاتجاه الثالث الذي مارسه العقل المسلم حضارياً: النقل الجغرافي والانتشار . . .

إذا كانت الحضارة الإسلامية في الأولى قد مارست انفتاحاً عقلانياً على تراث الحضارات السابقة، وإذا كانت في الثانية قد حوَّرت فيها وفسَّرت وشرحت وأضافت وابتكرت وأغنت . . . فإنها هاهنا تمارس انفتاحاً إنسانياً، يتجاوز تقاليد الانغلاق على الذات، ويرفض الأنانية والاستعلاء . . .

لقد فتح المسلمون صدورهم لكل طالب علمٍ ، أيّاً كانت الجهة التي قدم منها، وفتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصاريعها لكي يخرج منها الضوء الجديد فيغطي قارات العالم ويلفّها بالنور . لقد وضعوا كشوفهم ومعطياتهم أمام الجميع ونادوا بأعلىٰ صوت: إن من يرد أن يأخذ فإن الطريق مفتوح . . . لقد كان عطاؤهم ـ بحق ـ غير مجذوذ . . .

إن غوستاف لوبون يقول بصراحة:

« . . . لقد كان تأثير العرب في الغرب عظيماً للغاية، فأوروبة مَدِينَة للعرب بحضارتها؛ ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب في الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوروبة عندما أدخل العرب الحضارة

إليها. . . »[16].

ويعلنها/لكلير بكلمات واضحة:

« . . . نستطيع أن ندرك أية ثورة فكرية بعثتها في الغرب حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وأية فائدة جناها العلماء اللاتين منها، فكانت هذه الترجمة أداة جوهرية للتقدم وانتشاراً للعلم العربي المنتعش بجانب الغرب. . . »[17].

ولازلنا نذكر كلمة مسيو ليبري التي مرت بنا قبل قليل:

« . . . لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبة في الآداب عدة قرون. . . »!!!

ربما يكون، في هذا الإسراف في أخلاقية العطاء، ما يثير نقداً أو اعتراضاً. . إذ كيف تسلم خصمك السلاح الذي سيقتلك به، وفي الحضارات جوانب مما قد يتحول إلى سلاح للقتل فعلاً؟!!. .

إن الغربيين في قرننا هذا صنعوا القنبلة الذرية، وأعقبوها بالهيدروجينية، فالنيوترونية. . إلى آخره. . ولم يسمحوا لأنفسهم قط أن يعطوا معادلاتها الرياضية والطبيعية لأيدي وعقول الأمم الأخرى. . . اللهم إلا من يحسبونه امتداداً لهم. . أفما كان أولى

---

(16) المصدر السابق نفسه ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(17) المصدر السابق نفسه ص ١٩٢.

بالمسلمين أن يتوقفوا بعض الشيء ويراجعوا حساباتهم قبل أن يمضوا في العطاء حتى آخر نقطة؟!!

هـذه مسألـة أخرى. . . ويكفي العقـل الإسلامي شرفـاً أنه كان عقلاً «إنسانياً» يعمل من أجل الإنسان أياً كان موقعه في الزمان والمكان، كما علمته عقيدته أن يعمل. . .

كلنا يعرف الجسور التي انتقلت عليها معطياتنا الحضاريـة إلى عالم الغرب الغارق ـ يومها ـ في سباته العميق. . . إسبانيا. . . جزر البحر المتوسط. . شواطىء آسيا وافريقيا. . . والأناضول. . فضـلاً عن تجـارب الاحتكـاك التـاريخي البشري، في السلـم والحـرب بـين الأمة الإسلامية وشعوب الغرب. . .

«. . . لقد عبرت الحضارة العربية إلى أوروبا ـ يقـول «لويس يونغ» ـ وتركت آثارها من خلال ثلاثة جسـور هي بترتيب الأهميـة: إسبانيا، وصقلية، وسورية. . وتبقى إسبانيا أهم طريق مـرت عبره الحضارة العربية إلى أوروبة. . . إن التأثير العربي الدائم في إسبـانيا ثقـافياً ولغـوياً، لم يكن فقط بسبب تـواجد السلطة العـربية في هـذه البلاد زهاء ثمانية قرون، فإن الحضارة العربية تجاوزت أوروبة حيث غدت إسبانيا منطلقاً لترجمات في الفلسفة والعلوم العربية عـلى نطاق واسـع، وذلـك في مـدينـة طليـطلة التي استعـادهـا النصـارى عـام ١٠٨٥م. . . وكانت الثقافـة العربيـة تنتقل كـذلك إلى أوروبـا عن

طريق الباحثين إلى جنوبي فرنسا وتولوز ومرسيليا وناربون ومونبليه، وشهد القرن العاشر انتقال العلوم العربية بصورة مبكرة إلى اللورين مما جعلها مركزاً ثقافياً هاماً لمدة قرنين؛ كما غدت مدن أخرى مراكز للتأثير العربي الحضاري وهي: لييج وكورز وكولون؛ ومن اللورين انتقلت الثقافة العربية إلى أجزاء أخرىٰ من ألمانيا وإلى انكلترا.

وكانت صقلية الجسر الثاني الذي اجتازته الحضارة العربية في طريقها إلى أوروبة.. ولقد شهد القرن الثاني عشر ظهور حضارة نصرانية إسلامية صقلية نتيجة لسياسة اللين التي اتبعها النورمانديون في صقلية؛ ولسوء الحظ فإن هذه الظاهرة من التعاون الحضاري فريدة في تاريخ العلاقات بين العرب وأوروبة. وقد أخذ النورمانديون عن العرب «تقاليدهم» وآدابهم وعلومهم، واستخدمت اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب اللاتينية واليونانية، وضربت النقود على النمط العربي...

وكانت سورية الجسر الثالث للحضارة العربية العابرة إلى أوروبة خلال الحروب الصليبية.. في المجالات التجارية والعسكرية والزراعية والصناعية، أما في مجالات العلوم «الصرفة» والفلسفة فلم يكن لسورية كبير تأثير في نقل الحضارة العربية إلى أوروبة، إلى جانب ذلك فإن الأدب الأوروبي اغتنى بما نقلته الحملات الصليبية إلى أوروبة من الفن القصصي والأسطوري للحضارتين البيزنطية والعربية؛ وكان للتجار الفضل الكبير في نقل

الثقافة الإسلامية إلى أوروبة عن طريق سورية في زمن الصليبيين، فقد كانت الطرق التجارية الإسلامية تنطلق من سورية والبحر الأسود، وبعد ذلك صوب المدن التجارية الإيطالية، مثل: جنوة ولوكا والبندقية، وكانت البضائع تنقل عبر جبال الألب إلى المراكز التجارية الكبرى في أوروبة، مثل: أوكسبورغ ونورنبرغ وأولم وريجنسبرغ وغيرها. . . أما الطرق التجارية الشرقية فكانت تنطلق من المناطق الشرقية للبلاد الإسلامية عبر روسيا وإلى بلدان شرقي أوروبة. . .»[١٨].

ومهما يكن من أمر فإن الحضارة الإسلامية مارست وظيفتها في ميدان النشر الجغرافي بالقدرة نفسها على الفاعلية والعطاء التي مارست بها وظيفتيها السابقتين. . . لقد كانت في كل الأحوال تعمل من أجل الإنسان. . .

وثمة ما يجب أن يقال في ختام هذه الصفحات. . . إننا لو مارسنا تحليلاً لحجم الدور الذي أداه الإسلام «حضارياً» مقارناً بالأدوار التي أدتها المذاهب والحضارات الأخرى، سواء أكانت وضعية أم دينية محرفة. . فإننا سنجد المسافة واسعة ممتدة يصعب تقريبها، لاسيما إذا وضعنا في الحسبان الوظائف الكبرى الثلاث التي مارستها حضارة الإسلام.

---

(١٨) العرب وأوروبا، مقتطفات من الصفحات ١١٩ ـ ١٢٣.

إنه لا الحضارات السومرية والبابلية والمصرية، ولا الحضارات الإغريقية واللاتينية والبيزنطية والهللينية، ولا الحضارات الفارسية والهندية والصينية، على ما قدمته جميعاً من عطاء زاخر، بقادرة على أن تسامت هذا الدور. . . وإنه لا الفلسفة اليونانية والهندية، ولا المذاهب الوضعية الأوروبية منذ عهود النهضة والتنوير، وحتى طوباويات الاشتراكيين الفرنسيين والانكليز، ووجوديات: هيدجر وكيركغارد وسارتر وكامي، ومثالية: هيغل، ومادية ماركس وانغلز. . . بقادرة أيضاً على أن تسامت الإسلام في قدرته، ليس فقط على تكوين الحضارة وإنمائها، ولكن أيضاً في تحويل القيم والأفكار إلى واقع منظور، وتجربة معاشة، وخبرات تتشكل حية نامية في مساحات الزمان والمكان. . .

أما الحضارة الغربية المعاصرة، بأجنحتها كافة، فيكفيها جنوحاً في الشخصية وانحساراً في الدور الوظيفي ما تعانيه من اختلال محزن في التوازن بين الثنائيات الذي قدر الإسلام على التحقق به بشكل يثير الدهشة والإعجاب. . . توازن بين الوحي والعقل، والعدل والحرية، والضرورة والجمال، والفردية والجماعية، والروح والجسد، والطبيعة وما وراءها، والوحدة والتنوع، والمنظور والغيب، والمنفعة والأخلاق، والقدرة والاختيار، والحياة والموت، والدنيا والآخرة، والفناء والخلود

إن البريق الذي يشعّ من معطيات الحضارة الغربية فيبهر الأبصار . . . لن يتجاوز جلدها - بحال - إلى صميم التركيب البيولوجي والسايكولوجي لشخصية هذه الحضارة الجانحة . . .

وإنه حقاً لَلْمصير الذي ينتظر كل حضارة ترفض الإيمان بالله . . .

الفصل الثالث

الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية

[١]

بعد هذا كله... هل نطمح إلى استعادة دورنا الحضاري دون أن نتحقق بالشروط الضرورية لإعادة تشكيل العقل الإسلامي المعاصر، تماماً كما تشكلت عقول أجدادنا الروّاد؟

أبداً.. فبدون هذه الشروط التصورية والمعرفية والمنهجية... لن نقدر على الإمساك بالحركة التاريخية لكي تمنحنا مكاناً تحت الشمس، وتردّ إلينا دورنا المفقود... وهو دور (حضاري) حللنا ـ بإيجاز ـ طبيعة وظائفه وأبعاد تحققه التاريخي...

ولنا، في هذا المقطع، أن نرتد مرة أخرى إلى الجذور. . . إلى مبادىء الإسلام نفسها، لكي ما يلبث أن يتأكد لنا البعد الحضاري الذي يتغلغل في نسيجها. . في محاولة لتصور (الهيكل) الذي يقوم عليه.

وتصبح مسألة إعادة تشكيل العقل الإسلامي المعاصر، ليكون بمستوى الدور الذي يتوخى منه. . . ضربة لازب وقدراً محتوماً. . وإلاّ فإن مكاننا ذيل القافلة. . فلن نعرف أبداً ما يجري في المقدمة. . . ولا ما يراد بنا. . ولا إلى أين نسير. . . ولن تكون لنا ـ أبداً ـ خارطة على صفحة هذا العالم.

باختصار يناسب حجم هذه المحاولة. . . فإن الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية يمكن أن يتمثل بمثلث متساوي الأضلاع، محكم الزوايا، أو بمعادلة ذات ثلاثة أطراف، أو بعمارة مؤلفة من أدوار ثلاثة، يقوم أحدها على الآخر، ويتناظر معه بتطابق هندسي معماري مرسوم: الأرضية، والإنسان، وبرنامج العمل. .

وسنجد، دون تمحل ولا تشنج ولا تعمد مسبق على حساب المنهج، كيف أن الأطراف الثلاثة هذه تؤول، من خلال معطياتها الخاصة وطبيعة علاقتها بالطرفين الآخرين، إلى موقف حضاري، سداه العمل والإنجاز، ولحمته الكشف والإبداع. . .

ولنبدأ بالأرضية. . .

[٢]

لقد أريد للعالم أن يكون صالحاً لاستقبال الإنسان، مناسباً لقدراته الخاصة، مستجيباً، بقدر، لمطامحه وأهدافه. . .

لقد هُيِّئَتْ أرضية العالم لكي تحرث. . وتزرع. . ويكون الحصاد. . .

وبانتظار العقل الذي سيفكر. . . واليد التي ستنفذ. . . والإرادة التي ستشد بين رؤية العقل وقدرة اليد. . فإن العالم سيتشكل وفق صيغ ومعادلات تمكن القادم الجديد من أداء دوره الحضاري المرسوم. .

تماماً كما سيتشكل القادم الجديد نفسه، كما سنرى، بالصيغ والشروط التي تعينه على تنفيذ المطلوب:

والقرآن الكريم يحدثنا طويلاً عن سائر (العمليات) التي أريد بها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد، وإحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات. . بل إنه يمضي بنا إلى ما وراء ذلك إلى اليوم الذي قال فيه الله سبحانه للسماوات والأرض:

﴿. . ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١).

إن التوجه الحضاري في القرآن يمتد إلى ما قبل آدم. . إنه كل

فعل امتزجت فيه إرادة الله وكلمته بالمادة فصاغتها كتلاً كونية، أو نظماً طبيعية، أو خلائق تحمل بصمات الحياة الأولى من نبات أو حيوان. . .

ومادامت عملية بناء الكون وتهيئة الأرضية الصالحة للحياة على الأرض، قد سبقت خلق آدم بأزمان لا يعلمها إلا الله، ومادامت المقاييس الآدمية تجيء دائماً نسبية قاصرة، محدودة إزاء خلق الله، فليس لنا أن نطمح للإحاطة الكاملة والتفسير الشامل لقضية «التكوين» هذه، وليس لنا ـ كذلك ـ أن نفترض نظريات لا جدوىٰ من ورائها. . . إن هذا فوق طاقتنا، وإن أية محاولة في سبيله لا تعد أن تكون عبثاً «ميتافيزيقياً» يذكرنا بما كان يفعل جل الفلاسفة اليونانيين، والإسلاميين المتأثرين بهم، والذين أفنوا أعمارهم في هذا السبيل. . . وهذا لا يعني أبداً التشكيك بالمحاولات العلمية ـ التجريبية لدراسة الجانب الطبيعي القائم «فعلاً» من الكون، والسعي للكشف عن قوانين بنيانه المحكم، لأن هذا هو الموقف الذي يدعو له القرآن في عشرات الآيات. . إنما القصد هو الجانب الفلسفي التصوري لبدايات الخلق، والبحث عن «العلة» و«المعلول» و«متناهي الأول». . . إلى آخره. . . وكل ما يبينه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه في عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة، أن الكون ماضٍ في حركته الدايناميّة نحو الاتساع الدائم بإرادة الله:

﴿وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧)، وإن هذه الهدفية على المستوى الكوني، الكلي، وهذه الحركة صوب الاتساع، لابد وأن تنعكس في التصور الإسلامي على حركة التاريخ البشري نفسه، ومصير الإنسان في العالم، قبل أن يجيء اليوم الذي أعلن عنه القرآن مراراً، حيث تطوى السمٰوات كطي السجل للكتب، وتكف الحياة عن الاستمرار تمهيداً ليوم الحساب، وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الخلق الإلٰهي الدائم:

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

إننا حيثما تنقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وتهيئة الظروف الصالحة للحياة على الأرض، وتمعّنا فيها، وجدناها ترتبط ارتباطاً عضوياً أصيلاً بالدور المنتظر الذي بعث الإنسان لكي يؤديه، وبالقصد والجدوىٰ والنظام والأعمار والغاية التي بعث من أجلها؛ وهي كلها قواعد أساسية لأي نشاط حضاري فعّال هادف منظم متطور على الأرض:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ، لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مَن لَدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ، بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَىٰ ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ، وَلَهُ مَن فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ

يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (الأنبياء : ١٦ ـ ١٩).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ ٱلْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (هود: ٧).

﴿وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء: ١٢)،

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ﴾ (البقرة: ٢٩).

﴿ٱللهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ (الرعد: ٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤).

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (الملك: ٢).

﴿أَيَحْسَبُ ٱلإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾؟ (القيامة: ٣١).

﴿قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ، ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً، ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (فصلت: ٩ ـ ١٢).

إن كتلة العالم والطبيعة، وفق المنظور الإسلامي، قد سخرت للإنسان تسخيراً، وقد حدد الله سبحانه أبعادها وقوانينها وأحجامها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم، وقدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملاً إيجابياً فاعلاً. . . ولنتصور كيف سيكون الحال، على مستوى القدرة على التحضر، لو كانت الشمس أو القمر، على سبيل المثال، أقرب قليلاً أو أبعد قليلاً عن موقعهما المرسوم. . ولو كانت الجاذبية أخف قليلاً أو أثقل قليلاً عن شدّها المحسوب، ولو كانت مكونات الغلاف الغازي غير ما هي عليه من دقة معجزة في النسب المحددة. . ولو كانت مياه البحار والمحيطات خالية من الملح، والأجواء راكدة الرياح، ومحور الأرض عمودياً، وشكلها غير بيضاوي. . إلى آخره. . .

إننا إذا أردنا أن نعتمد مصطلحات المؤرخ الانكليزي «ارنولد توينبي» ومقاييسه الحضارية، فإننا سنرى في العالم «تحدياً مناسباً» للإنسان، ليس «معجزاً» ولا هو دون الحد المطلوب لإثارة التوتر البشري للرد.

وكأن إرادة الله سبحانه قد شاءت أن تقف به عند هذا الحد لكي يحقق الإنسان المدى الأقصى الذي يحقق خلافته في الأرض، فلم يشأ الله أن يمهد العالم تمهيداً كاملاً ويكشف للإنسان عن قوانينه وأسراره بالكلية، لأن هذا نقيض عملية الاستخلاف والتحضر والإبداع التي تتطلب مقاومة وتحدياً واستجابة ودأباً وإبداعاً، ولأنه يقود الإنسان إلى مواقع السلبية المطلقة، ويسلمه إلى كسل لا تقره مهمة الإنسان على الأرض أساساً؛ كما أن الله سبحانه لم يشأ، من جهة أخرى، أن يجعل العالم على درجة من التعقيد والصعوبة الطبيعية والانغلاق والغموض، يعجز معها الإنسان عن الاستجابة والإبداع، الأمر الذي يتنافىٰ أيضا ومهمته الحضارية التي أنيطت به كخليفة لله على الأرض جاء لإعمار عالم غير مقفل ولا مسدود:

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌ بَصِيرٌ، وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ، وَمِنْ آيَاتِهِۦ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا

يَشَاءُ قَدِيرٌ، وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٢٧ ـ ٣٠).

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ، وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ١٠ ـ ١٣).

والواقع أن الآيات الخاصة بمسألة التسخير «المتوازن»، المناسب، هذا، منبثة في مواضع من القرآن كثيرة لا تعد ولا تحصىٰ... إنه الحدّ «الوسط» الذي يتحدىٰ الإنسان إلى نقطة التوتر والقدرة على الاستجابة والفعل والإعمار، ويتجاوز التكشف الكامل أو الانغلاق الكامل الذي يستحيل معهما رد الفعل والإبداع...

إن هنالك آيات ومقاطع قرآنية عديدة تحدثنا عن هذا «التسخير» للعالم والطبيعة لخدمة الدور الذي أنيط بالإنسان في الأرض، وهي تمنحنا التصور الإيجابي لدور الإنسان الحضاري ينأىٰ كلية عن التصورات السلبية لعديد من المذاهب الوضعية التي جردت الإنسان من كثير من قدراته الفاعلة، وحريته في حواره مع كتلة العالم، وتطرف بعضها فأخضعه إخضاعاً كاملاً لمشيئة هذه

الكتلة وإرادة قوانينها الداينامية الخاصة التي تجيء بمثابة أمرٍ لا رادّ له، وليس بمقدور الإنسان إلا أن يخضع ويساير ويتقبل هذا الذي تأمر به.

وسواء التزم المذهب الوضعي المنطق الديالكتيكي على مستوى الفكر الكلي غير المحدّد، كما فعل هيغل، الفيلسوف الألماني، أو على مستوى المادة وتبدل وسائل الإنتاج وظروفه «الخارجية» كما فعل ماركس وإنغلز، فإن الإنسان يغدو تابعاً وليس متبوعاً، وإن الإنجاز الحضاري يجيء وكأن الإنسان جزء منه أو مساحة من مكوناته فحسب، وإنه ليس أمامه إلا أن يتشكل وفق مقتضيات مسيرة أكبر حجماً من إرادته، وأوسع مدىً من قدراته ومطامحه ونزوعاته الذاتية والجماعية على السواء.

إننا نلتقي ـ من خلال الرؤية الإسلامية ـ بصيغة أخرى للعلاقة بين الإنسان والعالم تختلف من أساسها... صيغة السيد الفاعل المريد الذي سخّرت وأخضعت له مسبقاً كتلة العالم والطبيعة لتلبية متطلبات خلافته في الأرض، وإعماره للعالم على عين الله:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ (النحل: ١٢).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

وَٱلنَّهَارَ﴾ (إبراهيم: ٣٢ - ٣٣).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؟ (الحج: ٦٥).

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رَخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (ص: ٣٦).

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللهُ﴾ (العنكبوت: ٦١).

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؟ (لقمان: ٢٠).

[٣]

الحدّ الآخر للهيكل الحضاري في الرؤية الإسلامية هو «الإنسان». . . والمسألة تبدأ بحادثة خلق آدم عليه السلام باعتبارها حجر الزاوية في الوجود البشري. . . في الظروف والدلالات والرموز والإرهاصات التي رافقته وأعقبته:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَما أَنْبَأَهُمْ

بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ، وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ، فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ، قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٣٠ ـ ٣٩).

تلك هي الخطوط العريضة، الواضحة، لمسألة الوجود البشري في العالم.. الصورة المتماسكة البيِّنة، التي تساقطت عندها قرناً بعد قرن عشرات المحاولات التي تطرفت باتجاه الخيال اليهودي «الاسرائيليات» أو التبرير العقلي المتوتر.. وبقيت الصورة القرآنية الخالدة على وضوحها وبيانها. إننا ـ من خلال هذا العرض المركز ـ نلتقي بقواعد أساسية ومبادىء كلية تتجاوز الجزئيات والتفاصيل، وتلقي ضوءها الشامل على كل ما يهمنا في الموضوع: خلافة الإنسان عن الله في الأرض، ومنحه القدرة على التعلم والفعل والاستيعاب، وتكريمه الأقصى بسجود الملائكة له... مجابهته بإبليس وبدء

«الصراع» بين الطرفين، و«الهبوط» الزمني «الموقوت» إلى الأرض، كأول تجربة من تجارب هذا الصراع . . . «تعليق» الدور البشري في العالم على تلقي «الهدى» من الله وحده، وتحديد المصير الذي سيؤول إليه موقف الإنسان «الحرّ» إزاء هذا الهدىٰ في الأرض والسماء.

تلك هي المبادىء الأساسية التي يقدمها لنا هذا المقطع القرآني، والتي تعيننا على تفهم الرؤية الحضارية للإسلام بأبعادها الشاملة، وهي مبادىء تملك من الوضوح والصلابة والاستمرارية والتماسك ما تبدو إزاءه، غامضة مفككة مضطربة، كل محاولات التفسير الوضعي لنشأة التاريخ البشري، وبدء الخليقة، وأصول الحضارات. . لأنها تكل أمر هذه اللحظة الفاصلة للصدفة العمياء، أو لتطور وسائل الإنتاج المادية في الخارج، أو لمحاولة «العقل الكلي»، الغامض غير المحدد، لأن يعبِّر عن نفسه من خلال العالم ويقطع الطريق الطويل من أجل التجلِّي، أو لرغبة الطبيعة في تنشئة خلائقها وترقيتهم عن طريق منحهم، غير المحدّد والمبرّر، لحياة لا تمتلكها هي نفسها، الأمر الذي يشكل تناقضاً مكشوفاً إزاء تحديد مصدر الحياة. . .

لقد أراد الله للإنسان أن يكون خليفته في الأرض، فمنحه القدرة العقلية على التعلم، والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والإبداع، والإرادة «الحرة» لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده إليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية . . . ولكي لا يحس الإنسان

«بالدونية» ولا تدور في خاطره أية فكرة عن «سلبيـة» دوره في العالم، رفعت مكانته إلى أعلى مصاف، وأُمـر الملائكـة أن يسجدوا لـه. . . وتلك هي أسس تقـود ولا ريب إلى تصـور دور الإنســان في العـالم كقوة فاعلة، مفكرة، مريدة، منفذة، مستقلة، مفضلة. . . الأمـور التي لابدّ منها لأي إبداعٍ حضاري على الأرض.

فإذا ما أضفنا إلى هذا ما سبق وأن أشرنا إليه من أن العالم قـد مهد تمهيداً للدور البشري على أرضيته، ومـا سنشير إليـه بعد قليـل من ضرورة «التعـاليم» التي كـانت تتنـزل حيناً بعــد حـين لكي «تضبط» و«تنظم» حركـة الإنسان في العـالم، أدركنا كم هي عميقـة شاملة متكاملة الأسس التي منحت للبشرية لكي تعتمدها في ممارسة خلافتها العمرانية، أو الحضارية في العالم.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن مسألة «الاستخلاف» تتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم، الأمر الذي يؤكد مـدى ثقلها في تصميم الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية:

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ (فاطر: ٣٩).

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٤).

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل: ٦٢).

﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥).

[٤]

أما الحدّ الثالث للهيكل الحضاري في الرؤية الإسلامية فيتمثل ببرنامج العمل، أو «الدين» بعبارة أخرى. . . والدين في المنظور الإسلامي هو «منهاج شامل» للحياة يتحرك «الإنسان» على «أرضية العالم» وفق مقولاته وتوجهاته وخططه وأهدافه، ويمارس «استخلافه» الحضاري للطبيعة التي «سُخّرت» له وفق تعاليمه ومعطياته. . . ودونه يضيع الإنسان، ويفقد القدرة على أداء وظيفته المرسومة. . أي ـ بعبارة أخرى ـ يفقد إمكانية تنفيذ دوره المرسوم في طريق الرقي الصعب الطويل. . . وهكذا تلقىٰ آدم منذ لحظة هبوطه الأولى «كلمات» من ربه لتكون بمثابة الهادي والدليل. . .

إن الدين، وفق هذه الرؤية، يبدو برنامجاً حضارياً. . . وهـو يكمّل ويناظر ويناسب طرفي المسألة الآخرين: الأرضيـة والإنسان. ومادامت الحياة الدنيا تعني ـ في المنظور الديني عموماً ـ تجربة اختبـار وابتـلاء، فمعنى هـذا أنها تتـطلب منـا عمـلاً دائـماً وإبـداعـاً متـواصلاً. . . ولكن أيُّ عمـل وإبداع يتـوجبـان عـلى الإنسـان في الفـرصة التي ستنتهي إلى «أجلهـا المسمى»؟. . . إنـه ليس ارتجـالاً كيفياً، ولا مواقف جزئية مفككة، كما أنه ليس فوضىً لا يحدها نظام ولا يسلكهـا هـدف. . . إنمـا العمـل والإبـداع اللذان ينبثقـان عن تخطيط مرسوم، وينطلقان من مواقف كليـة شاملة، ويصـدران عن نظام مبرمج إلى غاية دابنامية لا حدود لها أبداً تلك هي «عبـادة الله» والتوجه إليه والتلقي عنه وحده.

وضوح. . . الهدف!!!

إن «عبادة الله» وحده، بالمفهوم الـديني الشامـل، هي الهدف الـذي يتوجب عـلى الإنسان، فـرداً وجماعـة، أن يصعِّد إليـه أوجـه نشاطاته الحضارية كافـة. . . وبينما تـرسم المذاهب الـوضعية ـ هي الأخرى ـ أهدافاً لحركتها الحضارية، تتميز حيناً بالغموض والمثالية، كما هو الحـال عند هيغـل، وتتميز حينـاً آخر بـالتحديـدات الماديـة الصـارمة، كـما هو الحال عند ماركس وإنغلز. . . الأمـر الذي قـاد الأول ـ وهو يتحدث عن تجلّي المتوحـد من خلال «الـدولة» ـ إلى أن

يعطيها المبررات الفلسفية كافة لممارسة سياستها العدوانية التي قد تقود ولا ريب إلى الدمار الحضاري والظلم البشري، وقاد الآخرين إلى إعلان مبدأ دكتاتورية الطبقة العاملة وتبرير أي أسلوب تعتمده لتحقيق هدفها مادامت لا تعد أن تكون منفذة أمينة لمنطق التبدّل في وسائل الإنتاج، الأمر الذي قادها إلى تنفيذ المجازر الجماعية تجاه القوىٰ المعارضة كلها، والتي لا تنسجم وبداهات التحضر البشري الحرّ. . .

ثم ماذا بعد هذه الأهداف التي تؤكد المذاهب الوضعية أنها آتية لا ريب فيها، وهي في تأكيدها هذا تقع في التناقض الصريح مع «الداينامية» التي أقرتها كأساس لحركة التاريخ البشري ونمو الحضارات؟ ماذا بعد تجلي المتوحد ودكتاتورية الطبقة العاملة؟! . .

إن التجربة البشرية أوسع دائماً، وأغنى وأشمل من أن تحصرها حدود طبقية تقوم على فرض التشابه الجماعي بالقسر، ومجابهة كل تفرد أو تميز إنساني، ولا يعد مصيرها في نهاية الأمر أن يكون إنشاء مجتمعات لا تزيد في أنشطتها ومعطياتها عما نشهده في عوالم النحل والنمل من نظم هندسية صارمة دقيقة، وعمل دائب وإنتاج متزايد. . أو أن تحصر هذه التجربة البشرية الواسعة الغنية المعقدة المتنوعة الشاملة، دولة عالمية يتجلى فيها المتوحد الهيغلي ويسوسها عرق ممتاز، مبررة سلفاً كل ممارساته العدوانية ونزعاته الشوفينية.

بينما ترسم المذاهب الوضعية أهدافاً كهذه، تتميز بالغموض أو الطغيان أو التناقض أو الانغلاق، نجد الموقف الإسلامي يعلن هدفه الواضح المتوحد المفتوح الذي يستقطب حوله الفاعليات والمعطيات كافة: عبادة الله، والتوجه إليه، والتلقي عنه.. ويطلب من القوى المؤمنة أن تتحرك على مدار التاريخ، وفق كل الأساليب الإنسانية الشريفة الممكنة لتجميع البشرية حول هذا الهدف الكبير:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٣).

ولكي تتوحد في ممارساتها ومعطياتها وعلائقها جميعاً مع النواميس الكونية الشاملة والنظام الإلهي الملزم في مداه البعيد، والذي ما منح هذا القدر من الحرية للإنسان، إلا لكي يعتمدها باختياره، في التساوق مع هذا النظام، والاندماج في المجرىٰ العام لخلائق الله جميعاً، تمييزاً له ـ بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة، ومكانته كسيد للعالمين ـ عن سائر خلق الله... وثمة فرق شاسع، على كل المستويات الذاتية والاجتماعية والحضارية، في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الإنسان، وهو متساوق مع نواميس الكون، متناغم مع مسيره ومصيره، أو وهو منشق على هذه النواميس، متنافر معها بدءًا ومصيراً...

والواقع أن الإنسان ـ فرداً وجماعة ـ ينسى في معظم الأحيان

أن دائـرة حريتـه محـدودة فيـما يقـدمـه من أفعـال، ومـا يتخـذه من مـواقف، ويلتزمه من أهـداف، وأنـه فيـما وراء ذلـك محكـوم بسنن ونـواميس إلهية تفـوق طاقـاته وقـدراتـه جميعـاً، ودونها لا يمضي حق وعـدل، ولا يستقيم نـظام كـوني، ولا وجـود بشري، ولا تتحقق حكمـة الله سبحانـه من تسيير الكـون والخلائق جميعـاً وفق طـرائق محدودة منضبطة تؤول بهم جميعـاً إلى الأهداف التي رسمهـا علم الله المـطلق، ودفعتهم إليها إرادتـه التي لا رادّ لها. . . والآيـات التاليـة تعرض علينا المسألة في أبعادها المتكاملة ومن زواياها المختلفة:

﴿وَمَـا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰـوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إِلاَّ بِـٱلْحَقِّ﴾ (الحجر: ٨٥).

﴿وَلله يَسْجُـدُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰـوَاتِ وَٱلأَرْضِ طَـوْعـاً وَكَرْهاً. . .﴾ (الرعد: ١٥).

﴿ولله يَسْجُـدُ مَـا فِي ٱلسَّمٰـوَاتِ وَمَـا فِي ٱلأَرْضِ مِن دَابَّـةٍ وَٱلْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل: ٤٩).

﴿وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْـرَ ٱللهِ تَتَّقُونَ﴾ (النحل: ٤٩).

﴿تُسَبِّـحُ لَهُ ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لاَ تَفْقَهُـونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَـانَ حَلِيماً غَفُـوراً﴾ (الإسراء: ١٤).

﴿وَمَـا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـاءَ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَـا بَاطِـلاً ذٰلِـكَ ظَنُّ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (ص: ٢٧).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (الروم: ٨).

﴿إِنَّ ٱللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ، لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ (الزمر: ٦٢ ـ ٦٣).

﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ، وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٧١).

﴿وَلَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ (الروم: ٢٦).

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، وَمَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان: ٣٨ ـ ٣٩).

حدود الجبر والاختيار. . .

ولو تمعّنا قليلاً في موقفنا عبر الكون لرأينا أننا مجبرون ـ بالحق والعدل والنواميس، وباعتبارنا جزءا من خليقة الله، شئنا أم أبينا ـ

في مساحات واسعة حاسمة من وجودنا: أننا مجبرون على أن نـولد، ومجبرون على أن نموت. . أننا مجـبرون على أن نبعث، وأن نحـاسب على أعمالنا، وأن نساق إلى جنة أو إلى نار وفق هذا الحساب العـادل المحفّـز. . أننا مجـبرون عـلى أن ننتمي إلى هـذا الإقليم أو ذاك، إلى هــذه القبيلة أو تلك الأمـة، وإلى هــذا الجنس أو ذاك، وإلى هـذا اللون أو ذاك. . مجـبرون كذلـك على أن نخضـع لمتطلبـات حياتنـا البيولوجية والحسيَّة، وعـلى أن نتقلب في تجاربنـا النفسية بـين الحزن والفــرح والغم والانشراح، والخـوف والــطمــأنينــة، والتمــزق والتـوحد. . . وفـوق هذا وذاك فـأننـا مجـبرون عـلى حمـل مـلامحنـا الشخصية المتفردة، وسماتنا الخـاصة وبصـمات أصابعنـا. . . ودون هـذه الالتزامـات الحتمية تتبـدّد الحياة، وتفقـد وحدتهـا وتمـاسكهـا ومعناها. . . دون هذا «الجبر» تضيع البشرية، ويحـدث التناقض في النواميس، وتختفي قيم الحق والعدل الأزلية. . .

والمساحة المتبقية لممارسـة حريتنـا إنما منحت لنـا لتميزنـا عن سائر خلق الله، وتفضيلنا على العالمين. . . إن هذه المساحة تمتد هي الأخـرى إلى أمداء واسعـة: المـوقف الـذي نتخـذه من العـالم. . . الأعمال والأهداف والمعطيات التي نقدمها في الحياة. . . هذه الحـرية التي تقف بـالإنسـان والأمم والشعـوب والحضـارات عــلى مفـترق طـريقين: فـإما أن تكـون مواقفنـا وأعمالنـا وأهدافنـا منسجمة مـع نواميس الكون وسنن الحياة، متوافقة معها، ممـا يترتب عليهـا إنجاز

حضاري أغنى، وتوحد بشري أشمل، وسعادة أكثر عمقاً، ومصير في الأرض والسماء أشد توافقاً مع مهمة الوجود البشري في الأرض... وهذا ما سعت الأديان لتحقيقه في العالم، وما يسعى الإسلام، وسيظل، من أجل تحويل البشرية كلها إليه:

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لله...﴾ (الأنفال: ٣٩).

وإما أن تجيء هذه المواقف والأعمال والأهداف منشقة، بالقدر الذي منحت فيه اختيارها بطبيعة الحال، عن نواميس الكون وسنن الحياة، مرتطمة بها، الأمر الذي يترتب عليه إنجاز حضاري متفكك، وتمزق بشري شامل، وشقاء عميق، ومصير سيء في الدنيا والآخرة، يندّ عن طبيعة الدور الذي بعث الإنسان في العالم لأدائه، ويجيء مكافئاً لعصيانه وتمرده ورفضه أداء المهمة.. وهذا ما سعت المذاهب الوضعية، وتسعىٰ، لتحقيقه في العالم وتحويل البشرية كلها إليه...

ومن ثم فإن الإسلام في تحليله لأدوار الأمم والشعوب والحضارات إنما يتخذ هذا المقياس الكوني المصيري الحاسم في تحديد مدىٰ توافق التجربة البشرية مع النواميس أو ارتطامها بها، ويدعونا إلى مواقع الانسجام والتوافق، نافخاً فينا روح العمل والإبداع، مستقطباً ممارساتنا ومعطياتنا في الهدف الواحد الشامل الذي أعلنه الله سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الـذاريـات: ٥٦).

وليس مفهـوم العبادة هنـا مسـاحـة ضيِّقـة لا تتجـاوز دائـرة «الشعائرية» و«الاتصال الـروحي» بالله. . . إنـه تجربـة حياة كـاملة يتوازن فيها الأخذ والعطاء، وتغدو أشبه بـالبرنـامج الشـامل الـذي ينظم فاعليات الجماعة البشرية في الأرض، ويمنحها معنىً، ويسير بها إلى هـدف واحد مـرسوم. . إنـه يمنح التجـربة الحضـارية طـابعهـا الخـاص، ويعطيهـا الدافـع والمـبرر، وينفـخ فيهـا روح الإبـداع، والابتكار، والتطور الدائم الفعال. . . كـما أنه يتجـاوز بها السفـوح الـدنيـا للنشــاط البشري إلى القمم التي تليق بمكـانــة الإنسـان في العالم. . . وبهذا تسقط ـ ابتداء ـ كل السلبيـات التي يمكن أن تعلق بأي نشاط حضاري لا يعتمد برنامجاً شامـلاً، أو لا يسعىٰ إلى هدف واضـح، ولا يلتزم أخلاقيـة الإنسان في منـاجاتـه مـع خـالقـه. . . [لـلاطلاع عـلى مزيـد من التفاصيـل حـول المـوقف الإسـلامي من «الحضـارة» انـظر الفصلين الثـالـث والـرابـع من كتـاب «التفسـير الإسلامي للتاريخ» (للمؤلف) واللذين اعْتَمَدَتْ بعض معطياتها في هذا الفصل والذي يليه مع الإضافة وإعادة الصيـاغة التي تقتضيهـا طبيعة السياق].



الفصل الرابع

الملامح الأساسـية للفعل الحضاري الإسلامي

إن المقطع السابق يقودنا إلى مسألة أخرى ترتبط أشد الارتباط بـالهيكل الحضـاري الذي يـطرحـه الإسـلام، لأنها تتعلق بـطبيعـة معـطيات هـذا الهيكل، تلك هي المـلامح الأسـاسية التي تميـز هذه المعطيات وتمنحها شخصيتها المتفردة بما أنها حصيلة لقـاء ذي توجـه إيماني بين العالم والإنسان والـدين. . ولن يتسع المجـال لاستعراض الملامح كافة، ونكتفي بـأكثرهـا أهمية وثقـلاً، متجاوزين التفـاصيل والجزئيات. .

[١]
روح العمل. . . والإبداع . .

نقرأ في كتاب الله هذه الدعوة الشاملة للعمل :

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة : ١٠٥).

ونستمع إلى الرسول المعلم ﷺ وهو ينادينا :

«إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[١].. فنعرف جيدًا كيف أن الدور الحضاري للإنسان المسلم يقوم على العمل والإبداع المتواصلين منذ لحظة الوعي الأولى وحتى ساعة الحساب!! ونعلم تماماً كيف أن الحياة الإسلامية إنما هي فعل إبداعي مستمر!!

ويبلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشري لإعمار العالم، على عين الله وتوجيهه، أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعاً، وهي كلها تشير ـ سلباً وإيجاباً ـ إلى أن المحور الأساسي لوجود الإنسان ـ فردا وجماعة ـ على الأرض هو العمل الذي يتخذ مقياساً عادلاً لتحديد المصير في الدنيا والآخرة، وهو «موقف» ينسجم تماماً مع فكرتي «الاستخلاف» و«الاستعمار» الأرضي . .

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

إن القرآن الكريم يحدثنا أن مسألة خلق الموت والحياة أساساً إنما جاءت لابتلاء بني آدم، أيهم أحسن عملاً :

﴿ٱلَّـذِي خَلَقَ ٱلْمَـوْتَ وَٱلْحَيَـاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَـلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (الملك : ٢).

كما يحدثنا في سورة العصر أن موقف الإنسان في العالم سيؤول إلى الخسران بمجرد افتقاد شرطيه الأساسيين : «الإيمان والعمل الصالح».. ويصدر أمره الحاسم إلى الأمة المسلمة أن تلتزم دورها الإيجابي الفعال في قلب العالم :

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىٰ ٱلْخَيْرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِـكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ، وَلَا تَكُـونُوا كَـالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُـوا مِن بَعْدِ مَـا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران : ١٠٤ ـ ١٠٥).

وفي مكان آخر يصف هذه الأمة بأنها :

﴿. . . خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسَ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللهِ﴾ (آل عمران : ١١٠).

إن «الإيمان» الذي يقوم عليه بنيان الدين يجيء دائماً بمثابة «معامل حضاري» يمتد أفقياً لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب، ويوجهها في مسالكها الصحيحة، ويجعلها تنسجم في علاقاتها وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة

ونواميسها، فيزيدها عطاءً وقوة وإيجابية وتناسقاً. . كما يمتد عمودياً في أعماق الإنسان ليبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية، ويقظة الضمير، ويدفعه إلى سباق زمني لا مثيل له لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجر طاقاته، ويعبّر عن قدراته التي منحه الله إياها على طريق «القيم» التي يؤمن بها و«الأهداف» التي يسعى لبلوغها، فيما يعتبر جميعاً ـ في نظر الإسلام ـ عبادة شاملة يتقرّب بها الإنسان إلى الله، وتجيء مصداقاً للآية :

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات : ٥٦).

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا «السباق» الحضاري عندما يصف المؤمنين بأنهم ﴿يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ﴾ وأنهم ﴿لَهَا سَابِقُونَ﴾، وفي كلا التعبيرين نلمس بوضوح فكرة «الزمن» ومحاولة اعتماده لتحقيق أكبر قدر ممكن من المعطيات، ما تلبث أن ترتقي ـ بمقاييس الكم والنوع ـ بمجرد أن يتجاوز «المسلم» مرحلة «الإيمان» إلى المراحل الأعلى التي يحدثنا القرآن عنها في أماكن عديدة : «التقوىٰ» و«الإحسان». .

وهكذا تجيء «التجربة الإيمانية» لا لكي تمنح الحضارة وحدتها وتفردها وشخصيتها وتماسكها، وتحميها من التفكك والتبعثر والانهيار، فحسب، وإنما لكي ترفدها بهذين البُعْدين الأساسيين اللذين يؤول أولهما إلى تحقيق انسجامها مع نواميس الكون

والطبيعة : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾؟ (آل عمران : ٨٣).
﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران : ٨٥).

ويعطيها ثانيهما قدرات إبداعية أكثر وأعمق، تتفجر على أيدي أناس يشعرون بمسؤوليتهم، ويعانون يقظة ضمائرهم، ويسابقون الزمن في عطائهم، لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر و :
﴿. . . لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي ٱلأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾ (القصص : ٨٣).

[٢]
مجابهة التخريب والإفساد

وفي مقابل هذا يندّد القرآن بكل عمل أو نشاط خاطىء من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض، وإلى هدم وتدمير المكتسبات التي يصنعها العمل الصالح بالصبر والدأب والمثابرة، وهو من موقفه هذا يسعى إلى حماية منجزات الإنسان الحضارية، ووقف كل ما من شأنه أن يعوق مسيرتها ونموها، وملاحقة أية محاولة لإنزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار كانت.

وهذه الحماية الحضارية لا تنصب على الجوانب المادية «المدنية»

من الإنجاز البشري فقط، بل تتجه إلى ماهو أكثر أهمية، وما يعد أساساً للإنجاز المادي نفسه، تلك هي المعطيات الفكرية والأخلاقية والروحية و«الثقافية» بمفهومها الشامل من أجل الصمود في المواقع التي بلغها الإنسان وهو يواصل طريقه لإعمار العالم، عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي الله تعالى إلى بني آدم.

إن الإصلاح والإعمار المنوطين بالاستخلاف مسائل تتداخل فيها كل الفاعليات الحضارية، مادية وأخلاقية وروحية، وإن أي ضرر أو إفساد يلحق بأحدها ينعكس ـ بشكل أو بآخر ـ على الجوانب الأخرى، وهذا واضح بيِّن في أكثر من آية :

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوىً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ، لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة : ١٠٩ ـ ١١٠).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا. . .﴾ (الأعراف : ٥٦).

﴿. . . وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ((الأعراف : ١٤٢).

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم : ٤١).

﴿وَٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلأَرْضِ أُولٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ﴾ (الرعد : ٢٥).

﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ، ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء : ١٥١ ـ ١٥٢).

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ﴾ (هود : ٨٨).

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلأَرْضِ فَسَاداً وَٱللهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة : ٦٤).

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِٱلآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (هود : ١٩).

والقرآن الكريم لا يكتفي بتقديم هذه الأمور ذات الطابع السلبي عن الإفساد الروحي والمادي، وعما يؤول إليه من دمارٍ لحضارة الإنسان، ولرقيه وسعادته وتقدمه، ومن عرقلة لدوره في العالم، كخليفة عن الله، ولكنه يطلب من الجماعة المؤمنة أن «تتحرك» لوقفه بأسرع ما تستطيع وبأقصى ما تطيق، لئلا يتحول

«الفساد» إلى فتنة عمياء لا ترحم أحداً ولا تبقي، وهي تحوم فوق رؤوس الجماعة كلها، ظالماً أو مظلوماً:

﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٢٥).

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٦ ـ ١١٧).

إن الرؤية الإسلامية ترفض، في موقفها من الحضارة، أشد ما ترفض، صيغ التجزئة والفصل وإقامة الجدران بين مساحات التجربة البشرية، وترى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة، وإن تجزئتها وعزل بعض جوانبها، خلال العمل، عن بعضها، ليس خطأً فحسب، لكنه مسألة تكاد تكون مستحيلة، إذا أردنا ـ مسبقاً ـ أن نصل إلى نتائج صحيحة.

[٣]
التوازن بين الثنائيات وتوحدها...

سنطيل الوقوف، بعض الشيء، عند هذه المسألة لأنها تكاد تمثل أكثر الملامح الأساسية أهمية في التصوّر الإسلامي للحضارة.

لقد جاء الإسلام لكي يؤكد موقفه من العمل الحضاري من خلال رؤية متوازنة تضم جناحيها على كل ما هو روحي أخلاقي ومادي جسدي في الوقت نفسه... ونجد أنفسنا ونحن نطالع كتاب الله، أو نقرأ سنّة رسوله ﷺ بإزاء تأكيدات عديدة، آيات وأحاديث، تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات... إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط، وهي تطلب من الإنسان أن ينظر في السماوات والأرض، بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع، بين التلقي عن الله والتوغل قدماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وأغاميضها، بين تحقيق مستوى روحي عالٍ للإنسان على الأرض وبين تسخير قوانين الكيمياء والفيزياء والرياضيات لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم والعلوّ الحضاري على المستوى المادي «المدني». ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك، إنه ـ كما أكدنا ـ يقف دائماً موقفاً شمولياً مترابطاً ويرفض التقطيع والتجزيء في تقييم الموقف «الحيوي» أو الدعوة إليه.. ولقد انعكس هذا «التوحّد» بين قيم الروح والمادة بوضوح كامل عبر مسيرة الحضارة الإسلامية التي قطعت ـ كما رأينا ـ القرون الطويلة وهي تحتفظ بتوازنها المبدع بين الطرفين، وأنجزت وابتكرت وكشفت ونفذت الكثير من المعطيات الحضارية التي لم تهمل

جانباً من الجوانب المرتبطة جميعاً، ارتباطاً وثيقاً، بخلافة الإنسان على الأرض، ودوره الحضاري في العالم... وما كان لها إلاّ أن تكون كذلك وهي تعمل في ظلال مناخ حضاري متوازن، نتلمسه بوضوح من خلال آيات عديدة هذه بعض نماذجها:

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

﴿فَلْيَنْظُرِ ٱلإِنْسَانُ إِلىٰ طَعَامِهِ، أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَاءَ صَبّاً، ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلأَرْضَ شَقّاً، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً، وَعِنَباً وَقَضْباً، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً، وَحَدَائِقَ غُلْباً، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴾ (عبس: ٢٤ ـ ٣١).

﴿فَلْيَنْظُرِ ٱلإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِن بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَائِبِ﴾ (الطارق: ٥ ـ ٧).

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلىٰ ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ، وَٱلأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ، وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ، وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ (ق: ٦ ـ ١٠).

﴿... ٱنْظُرُوا إِلىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ...﴾!! (الأنعام: ٩٩).

﴿فَٱنْظُرْ إِلىٰ آثَارِ رَحْمَةِ ٱللهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ (الروم: ٥٠).

﴿. . . وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً﴾ (البقرة: ٢٥٩).

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾؟ (الغاشية: ١٧ : ٢٠).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: ٢٠).

إن القرآن ـ من خلال هذه الآيات، وغيرها كثير ـ يريد أن يضعنا في قلب الطبيعة، على مستوى الكون والعالم، وأن يختار لنا موقعاً «تجريبياً» يعتمد النظر والتمعن والفحص والاختبار من أجل الكشف والابتكار والإبداع، ومن أجل ألا نفقد توازننا الحضاري، فنجنح باتجاه الروح أو الأخلاق ونهمل التكييف والتطوير الماديين الملازمين لأية حضارة متوازنة تريد أن تتحقق بالشرط الأساسي للوجود الإنساني على الأرض، وهو عبادة الله، والتوجه إليه أخذاً وعطاءً.

إن هنالك بداهة من أشد بداهات الإيمان أهمية، تلك هي أن الله سبحانه مادام قد «عبّر» عن إبداعه وقدرته الكلية على مستوى الروح والمادة، والإنسان والطبيعة، فليس ثمة معنى أبداً لأي موقف بشري من المادة أو الطبيعة يتميز بالهروب أو الاحتقار أو

السلبيـة أو الاستعلاء، إن هـذا «الموقف» مهـما كانت درجتـه، غير مـبرر في بداهـات الإيمان، ولا في مقتضيـات «الاستخلاف»، ليس هذا فحسب، بل إنه يقف نقيضاً لهذه البداهات والمقتضيات، ومن ثم فهو مرفوض في الرؤية الإسلامية ابتداء. . .

إن كتاب الله يوجـه أنظارنـا، في الآيات السـالفة، إلى أشـد الأمـور ماديـة وثقـلاً: الـطعـام، النـطفـة الأولى؛ الأرض والسـماء والجبال، وإلى دنيا النبات والحيوان. . ويدعونـا لأن نسير بحثـاً عن سنن هذه العوالم، وإدراكـاً لأبعاد خلقهـا المعجزة التي لا تتحقق إلا بإرادة كلية نافذة لا يعجزها شيء. . . إن القـرآن يدعـو إلى حضارة تنمو وتزدهر على كل المستويات الروحية والأخلاقية والطبيعية، وهو يخصص المقـاطع والآيـات الطوال لـلإبـداع الحضـاري في مستـواه الـطبيعي، المادي، ولكن شرط أن تضبـطه القيم والمعايـير الـدينيـة الآتية من عند الله.

إن كل آية أو مقطع قرآني يتناول مسألـة طبيعية، أو حيـوية، أو مادية ينتهي بأفعال التقوى والإيمان، وبالدعوة إلى ربط أية فاعلية بالله. . وهذا التأكيد المتكرر له مغزاه الواضح. . إن منطق «التوازن الحـركي» الذي يـرفض الانحـراف أو السكـون هـو القـاعـدة التي نتلمسها في القرآن الكـريم بوضـوح من خلال عـدد كبير من آيـاته البينات، والتي تكفل نمواً سليماً لآية حضارة تستـطيع أن تحـافظ على نقطة التوازن بين تجربتي الروح والمادة، ولا تنحرف باتجاه إحداهما،

مهملة الأخرى، أو ضاغطة عليها، مستخدمة إزاءها أساليب القمع والكبت والتحديد. . . التوازن الذي يمكن الحضارة من الحركة الدائمة لأن الأهداف التي يضعها أمامها تأخذ مستويات صاعدة لا يحدّها أفق، ولا يقف في طريقها تحديد صارم. . إنها تبدأ بتأمين متطلبات الحياة اليومية المباشرة وتتقدم ـ بعد هذا ـ صوب إعمال الفكر في قلب العالم للكشف عن نواميسه، أو في أمداء الكون لإدراك سرّه المعجز. . هذه الفاعلية التي ما لها من حدود تقف عندها. . . ومن ثم توالي خطواتها لتنفيذ أكبر قدر من ضمانات التجربة الروحية الشاملة، وإيصالها إلى مطامحها التي تتجاوز الأرض إلى السماء، وتغادر اللحظة الموقوتة العابرة إلى عالم الخلود.

إن القرآن الكريم يبين لنا ـ أكثر من مرة ـ أن علاقة الإنسان بالحاجات المادية الجسدية علاقة صميمة، وأن حبه لإشباعها مركوز في جبلته التي يشكلها الجسد تماماً كما تحركها الروح والإرادة والقدرات العقلية:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ﴾ (آل عمران: ١٤).

إلا أن الخطوة الحاسمة التي يخطوها الإسلام متميزاً بها عن سائر المذاهب والنظريات، أنه يضع أهدافاً أعلى، وقيماً أوسع وأكثر شمولاً من مجرد تضييق نطاق الحياة البشرية في البحث عن إشباع

الحاجات الجسدية، على ثقلها، لأن تركيز الهدف النهائي للإنسان في الإشباع وحده يشده إلى الأرض ويلصقه بترابها، ويبعده عن مواقع الاستشراف الإيماني الشاملة الرحبة:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ (محمد: ١٢).

ولأن توسيع نطاق المناشط والأهداف البشرية، وتنويعها، وربطها بآفاق أرقى وأشرف وأكثر سمواً يعطي الحياة قيمتها الحقيقية، ويمكن الإنسان من تأدية مهمة الاستخلاف الأرضي بحالة من التوازن الفذ الذي يحميها من الالتصاق الساكن بالأرض، ويمنعها كذلك من التهويم السلبي في سماوات الروح:

﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ (آل عمران: ١٤ ـ ١٧).

إننا نستطيع أن نتلمس بوضوح موقف القرآن الكريم إزاء الجانب المادي ـ الجسدي عموماً، من خلال حشد كبير من سوره ومقاطعه وآياته... إن أي حديث عن الكون والطبيعة والعالم،

وتسخير السماوات والأرض، ومسائل الرزق والكسب والسعي، وأمور الغرائز والدوافع الجسدية، والدعوات المستمرة للتنقيب عن أسرار الطبيعة لصالح الموقف البشري على الأرض، ولأداء مهمته كخليفة جاء لإعمار العالم، ونداءات التسلح واعتماد القوة المادية ـ إلى جانب القوى الروحية ـ لصد العدوان، أو لتنفيذ متطلبات حركة الجهاد الدائمة، وتنظيمات الحياة اليومية المتشعبة، وغيره كثير، تأكيد واضح تماماً للأهمية التي يوليها القرآن الكريم للجانب المادي، إلاّ أنه يضع دائمًا في صميم هذه العلاقات والممارسات ــ ولا نقول بمواجهتها، إذ أن الرؤية الإسلامية ترفض الثنائية والازدواج ــ يضع قضايا الروح والقيم والأهداف البشرية العليا التي تحفظ توازن الموقف البشري في الأرض وتمكّنه من أداء مهمة الاستخلاف التي أنيطت به . . .

وفي مقابل «حركة التوازن» هذه التي يؤكدها الإسلام، ويدعو المؤمنين إلى التشبث بها، والتحرك وفق مقاييسها الموضوعية العادلة . . تبدو أية تجربة بشرية تجنح باتجاه المادية، مهملة الروح، أو تتشبث بالروحية مهملة المتطلبات المادية، شذوذاً وانحرافاً، لأنها تزوير وتزييف للموقف البشري في العالم، وقسر لتجربة الإنسان الفردية والجماعية، على التشكل فيما يأباه تكوينها الأساسي القائم على التداخل والتكامل والتوازن بين قيم الروح وقيم المادة على السواء؛ ولن تكون نتيجة هذا الانحراف الذي يأخذ في الحالة

الأولى اتجاهاً مادياً صرفاً، أو علمانياً يفصل بين شؤون الدين والدنيا. . ويأخذ في الحالة الثانية اتجاهاً رهبانياً هروبياً يرفض الدخول في قلب العالم لتغييره بما ينسجم ومهمة الإنسان في الأرض. . لن تكوَن نتيجة هذا الانحراف إلا تمزيق الذات الإنسانية على المستوى الفردي والنفسي، الأمر الذي ينعكس على طبيعة النشاط الاجتماعي، فيصيبه هو الآخر بالتمزق، والتشتت، والازدواج، وفقدان الهدف، وانتشار الإحساس المدمر بالعبثية، وباللاجدوى، وسيادة نزعة التشاؤم والانشقاق. . . وهي مسائل تبلغ ـ بتصاعدها المستمر ـ درجة من الحدّة تجعل الفعل الحضاري عاجزاً عن الإبداع والإنجاز وتقوده إلى التدهور والانهيار والسقوط.

[٤]
التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون

والمبدأ السابق ينقلنا إلى ملمحٍ آخر لا يقل أهمية. . إن الإسلام في تصوره للعلاقة بين الإنسان والعالم يرسم خطاً جديداً. . . خطاً يقوم على الوئام والانسجام، والتكامل والوفاق، والتجانس والالتحام بين الإنسان والطبيعة، بين الجماعة المؤمنة والعالم. . فمادامت قوىٰ الطبيعة وطاقاتها قد سخرت أساساً لخدمة الإنسان ومساعدته على الرقي الحضاري وإعمار العالم، فإن العلاقة

بينهما ليست ـ بالضرورة ـ علاقة قتال وصراع وغزو وبغضاء . . إنما علاقة انسجام وتقابل، وتواصل وتعاون، وتكامل وكشف وتنقيب . . . إنها علاقة الخادم المطيع بالسيد القدير . . . إنه في هذه الحالة لا يصطرع مع خادمه، أو يستفزه، أو يرفع السلاح في وجهه . . . إنما «يستخدمه» بحصافة وذكاء لتأدية واجباته جميعاً في أجواء تسودها علائق الطاعة والمحبة والإبداع .

إن الصراع بين الإنسان والعالم نظرة غربية صرفة، وهي مهما وضعت في أطر فلسفات شاملة تبدو للوهلة الأولى منطقية ومبررة، فإننا بمجرد التوغل في دقائقها ومنحنياتها، سنعثر على منطق الصراع الذي تنبني عليه معطياتها . . صراعاً يضعه «هيغل» في عالم الفكر ويبرر به أية جريمة شوفينية يمارسها شعب أوروبي متفوق لاستعباد وقتل الشعوب المستضعفة، ويضعه «ماركس» في ميدان التبدلات المادية ليبرر به أية مذبحة تمارسها طبقة ضد طبقة . . . أكثر من هذا، إنه يجرد الإنسان، في قلب هذا الصراع والتغيير المادي، من حريته وإرادته، ويجعله تابعاً مطيعاً لمنطق الصراع المادي هذا، يأتمر بأمره ويتشكل بقواعده حتى في أشد ممارساته بعداً عن المادية : الدين والفن والعواطف والأخلاق والمطامح والرؤى . . .

إن التصور الإسلامي، على العكس من هذا كله، يمنحنا معادلة حيوية ومنطقية لا خلل فيها ولا اضطراب . . إننا مادمنا قد خلقنا وفق هذه الصيغة التي تشتبك فيها قوى الروح والمادة، فإن لنا

أن ننطلق في نشاطاتنا وممارساتنـا من نقطة التـوازن التي لا تجنح ولا تنحـرف ولا تميل. . التـوازن الـذي ينتفي فيـه الصراع، ويتحـول الجهد الإنساني الدائم إلى سعي خلاق من أجـل التوحـد والتكامـل والانسجـام. . . وإنه مـادامت قوىٰ العـالم ـ من جهة أخـرى ـ قـد سخرت لمهمتنا الأرضية تسخيراً، فإن علاقتنا بها ليست أبداً علاقـة صراع وتنـاقض واقتتـال. . إنمـا هي محـاولـة الكشف والتنقيب والاندماج للوصول إلى أكبر قدر ممكن من التفاهم بين الإنسان وبين العالم، بعد الكشف عن سننه ونواميسه الطبيعية.

إن اكتشـاف الفضاء في المنـظور الإسلامي ليس «غـزواً» كـما يراه الغربيون، ولكنه فهم وتوغل ووفاق. . . إن القمر ليس خصـماً يُغزىٰ، ولكنه خادم مطيع يُنادىٰ فيلبي النداء!!

[٥]

الميزة التحريرية. . .

لقد كان الإسلام، منذ اللحـظة الأولى، عملاً تحـريريـاً. . . وعـلى المستويـات كـافـة. . وقـد رأينـا، ونحن نتحـدث عن النقلة التصـورية ـ الاعتقـادية التي نفـذهـا هـذا الـدين، كيف أنـه حـرّر الإنســان من الضلالات والأوهـام والـطواغيت والأربـاب. . . وفي نقلتـه الأخرى. . . النقلة المعـرفيـة. . مـارس تحـريـره من الخـوف

والجهل والأمية . . وكانت نقلته المنهجية باتجاه تحرير الإنسان المسلم من الخضوع للفوضى، والانحناء للصدفة العمياء، وتبصيره بقوانين العمل والحركة التي يسير الكون والعالم والتاريخ بموجبها . . .

ونريد هنا أن نتوغل أكثر في هذه الميزة «التحريرية» التي تصبغ حضارة الإسلام وتتشابك مع نسيجها الفذ . . . فنضع أيدينا على دعوة ملحة لتحرير رغبات الإنسان وأشواقه الجسدية والروحية، وفتح الطريق أمام دوافعه وحاجاته ومنازعه!! وهذا التوجه يمثل امتداداً ولا ريب لرؤية الإسلام التوازنية الأصيلة التي مرت بنا خطوطها العريضة قبل قليل .

إن إحدى الآيات القرآنية تتحدث بصراحة عن «الزينة»، آمرة بني آدم أن يمارسوها، وأين؟ عند كل مسجد، حيث يؤدي الإنسان غاية تجربته في التجرد والانسلاخ عن زخرف الحياة الدنيا :
﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ . . تعقب ذلك دعوة صريحة ـ أيضاً ـ إلى الأكل والشرب شرط ألا يبلغ ذلك حدّ الإسراف :
﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف : ٣١) .

ثم ما تلبث الآية التي تليها أن تتساءل بصيغة استنكارية واضحة :

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلْطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٢).

إن المحرّم والمرفوض في الإسلام هو الفاحشة، أياً كان مصدرها الجسد أم الروح، وليس ثمة رفض أو تحريم أو احتقار موجّه ابتداء إلى الجسد بما أنه جسد، وإلى غرائزه وحاجاته بما أنها غرائز وحاجات تقف في طريق الروح!! إننا نقرأ في الآية التي تلي ذلك ـ وهذا الارتباط بين الآيات الثلاث يحمل مغزاه الواضح ـ نقرأ:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِٱللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ ٱللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٢).

وما أكثر الآيات التي تستنكر على بعض أتباع الديانات المنحرفة السابقة تحريمهم الكثير من الطيبات التي أحلها الله، وما أكثر الآيات التي تدعو الإنسان إلى استغلال الطيبات التي أحلها الله، دون إفراط أو تفريط.. وإلاّ لمَ كان خلق الله سبحانه لها، وتفجير خيراتها وتنويعها في أنحاء الأرض؟

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ..﴾ (آل عمران: ٩٣).

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هٰذَا...﴾ (الأنعام: ١٥٠).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾؟ (يونس: ٥٩).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وآتوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: ١٤١).

﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٤٨)

﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ (النحل: ٣٥).

إن الآيتين الآخيرتين تضعان التحريم الاعتباطي جنباً إلى جنب مع الشرك بالله، وتنعي على أولئك الذين يمارسون هذا التحريف بشأن الحقائق الكونية وبحق أنفسهم على السواء، قائلين: إن هذا قدر لا مفر لهم منه... إن كبت الغرائز هو تزوير للموقف الإنساني في الأرض، والشرك بالله هو أخطر تزوير، ومن ثم كانت الممارسة البشرية التي تعتمد التزوير مرفوضة في القرآن مهما صغر حجمها أو كبر.

بل إننا نجد في الآية التي تقول:

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٦).

إن كبت بعض جوانب الغريزة، أو الحدّ من إشباعها القائم على ضرورة التنويع يجيء بمثابة «عقاب» وليس - كما قد يتصور بعضهم - قاعدة من قواعد الدين... على العكس، إن إحدى كبريات البداهات الدينية التي نتعلمها من القرآن الكريم، أن الحلال هو القاعدة العريضة في ميادين الإشباع الغريزي جميعاً: طعاماً وشراباً وجنساً ومسكناً وملبساً، وأن التحريم مسألة «استثنائية» محدودة المساحة، ضيقتها، حتى إن القرآن ليعتبر توسيعها بشكل اعتباطي كفراً وافتراءً على الله:

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللهُ ٱفْتِرَاءً عَلَىٰ ٱللهِ...﴾ (الأنعام: ١٤٠).

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ (النحل: ١١٦).

ويحذر المؤمنين من هذا السلوك المنحرف المعارض لطبيعة التركيب البشري الذي صاغه الله وعجنه، وهو أدرىٰ به:

﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ ٱللهُ لَكُمْ﴾ (المائدة: ٨٧).

﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللهُ لَكَ﴾؟ (التحريم: ١).

ويبين لهم أن إحدى مهام الأنبياء الأساسية، أن يجيئوا ـ دائماً ـ لكي يعيدوا الأمور إلى نصابها، ويقفوا بمواجهة التزوير. . . وهنا في مجال التجربة الغريزية، يجيئون لكي يفتحوا الطريق العريض أمام متطلباتها مرة أخرى لكي يمضي الإنسان المؤمن إلى أهدافه الروحية دون أن تعيقه الضرورات:

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. . . ﴾ (آل عمران: ٥٠).

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ ٱلْخَبَائِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

إن نداء يطرحه القرآن لبني آدم في مواضع كثيرة: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي ٱلأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾ (البقرة: ١٦٨)، يقودنا إلى بدهية أخرى، كثيراً ما غفلنا عنها، لشدة ظهورها ووضوحها، إن الله سبحانه قد «سخَّرَ» لنا الأرض بما ينسجم وتركيبنا الآدمي من أجل أن نواصل مسيرتنا لإعمار العالم وعبادة الله وحده، وإنه لمن التناقض المكشوف، المرفوض في القرآن قطعاً، أن يركّب الإنسان ـ من قبل خالقه ـ تركيباً معيناً، وأن تسخر الأرض ـ بإرادة الله ـ لتلبية متطلبات هذا التركيب، ثم تجيء الأديان ـ من عند الله أيضاً ـ لكي تنصب الحواجز وتضع الأسلاك الشائكة بين متطلبات التركيب الآدمي وبين خيرات الأرض ومنافعها المسخرة.

إن هذا التناقض إنما يجيء على أيدي طبقات «رجال الدين» التي يقوم دورها على التزييف، ووضع الحواجز، ونصب العراقيل في دروب المؤمنين من أجل أن تضطرهم اضطراراً للجوء إليها، وطلب معونتها، قبل السماح لهم بالذهاب إلى الله . . . وهناك يبدأ الاستغلال والاستنزاف والأكل بآيات الله ثمناً قليلاً . . وقد قطع الإسلام الطريق على بروز طبقات محترفة كهذه، ومن ثم فلا داعي للحديث أساساً عن تزوير كهذا يقف بمواجهة إرادة الله في تحقيق الانسجام الكامل بين الإنسان والعالم.

وما يقال عن حاجة الإنسان إلى الطعام يمكن أن يقال عن حاجاته الأخرى. . . سواء بسواء، ولقد وقفنا بعض الشيء عند المسألة الأولى لكي تبدو للقارىء بمثابة معيار موضوعي، مستمد من القرآن الكريم مباشرة، يقيس به موقف الإسلام من سائر الحاجات الحيوية للإنسان.

[٦]
الإنجاز الحضاري ليس هدفاً نهائياً

إن الإسلام وهو يحض المؤمنين على التسارع الحضاري : عملاً وإنجازاً وإبداعاً مسؤولاً، ويعلن رفضه للكسل والقعود والاتكال والعبور السالب للعالم دون تغيير أو إعمار، لا يتجاوز،

انطلاقاً من موقعه الوسطي الشامل، مسألة في مقابل هذا كله على غاية في الأهمية، لأنها تعد إحدى الملامح الأساسية الفاصلة بين التجربتين الحضاريتين : الدينية والوضعية، تلك هي التأكيد الدائم على أن حياة الإنسان في الأرض، فرداً وجماعة، ليست أبدية دائمة، إنما هي عابرة موقوته، وأن معطياته فيها ليست خالدة باقية، إنما هي معرضة ـ في أية لحظة ـ للدمار والزوال بناءً على طبيعة «الحياة الدنيا» القائمة على التغير والتنوع، والصعود والهبوط، والميلاد والموت . . وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرىٰ التي تتميز بالبقاء والدوام، والتي كتب للإنسان فيها الخلود المطلق، ومن ثم فإن كل ما يقدمه في هذه الحياة الفانية من أعمال ومنجزات يجب ألا يكون هدفاً بحد ذاته، كما هو الحال في جل التجارب الوضعية، إنما وسيلة فحسب لتهيئة الحياة الدنيا لعبادة الله وحده، وإيجاد المناخ المناسب لممارسة «الاستخلاف» . .

وهكذا يغدو الإنجاز الحضاري في الإسلام وسيلة إلى غاية أكبر، ويكتسب في الوقت ذاته «أخلاقية» لا نجدها في سائر الحضارات تصدّه عن استخدام طاقاته وقدراته في غير الطريق الذي تحتمه هذه الغاية الشريفة، البعيدة، التي لا تقف عند حد . .

إن القرآن الكريم، من أجل أن نظل دوماً في الموقف الوسط الذي يميزنا عن سائر المواقف القلقة النسبية، المتأرجحة، يحدثنا في

أكثر من موضع عن هذه المسألة. . إلا أنه يجب ألاّ يخطر ببالنا لحظة أنه يدعونا للزهد أو الفرار، لأن هذا يمثل تناقضاً أساسياً مع مجمل معطياته، ومع تأكيده في مئات المواضع على ضرورة العمل والإبداع. . إنما هو تقرير للحقيقة النهائية، وتثبيت للموازين العادلة، وعرض مقارن لعالميْ الفناء والبقاء، ورؤية للمؤمنين تصدهم عن الإفساد والطغيان :

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت : ٦٤).

﴿ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (الحديد : ٢٠).

﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ وَكَانَ ٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً، ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (الكهف : ٤٥ - ٤٦).

ويتضح هذا المعنى الأخلاقي الإيجابي للمسألة من خلال

العديد من الآيات التي تندّد بالغرور البشري الذي ينبثق عن الالتصاق الكامل بالحياة الدنيا، ويتمخض عن الظلم والإفساد والطغيان :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آيَاتِ ٱللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا. . .﴾ (الجاثية : ٣٥).

﴿. . . وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (الأنعام : ١٣٠).

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِٱللهِ ٱلْغَرُورُ﴾ (لقمان : ٣٣).

﴿بَلْ إِنْ يَعِدِ ٱلظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً﴾ (فاطر : ٤٠).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (آل عمران : ١٨٥).

إن نسبية التجارب البشرية، وعدم دوامها، لا تبدوان فقط بعرضها على مطلقات الآخرة وخلودها، إنما من خلال حركة التاريخ البشري كذلك.. الحركة الدائمة التي ترفع وتخفض، وتقدم وتؤخر، وتنشىء وتعيد، بإرادة الله، ووفق نواميسه في الكون :

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ ٱلأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِٱلأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(يونس : ٢٤).

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ، هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَلاَتَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَٱللهُ لاَ يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران : ١٣٧ ـ ١٤١).

الخاتمة
نحو «تكنولوجيا» إسلامية

لقد منحنا الإسلام مفتاحين للخلاص، كلما حزَبَنَا أمر، وضيَّقت حركة التاريخ الخناق علينا، وتجاوزتنا القيادات الأخرى، ووجدنا أنفسنا مدفوعين إلى مناطق العتمة والظلال . . .

أول هذين المفتاحين: «التغيير الذاتي» وثانيهما: الإعداد الذاتي» وبدونهما لن تبدأ حركة صوب التقدم إلى المواقع الأمامية . . أبداً . . . ولن يكون التجاوز والانطلاق . . .

وإننا لنجد في كلا المفتاحين مساحة واسعة تحتلها مسألة إعادة تشكيل العقل المسلم كشرط أساسي للتحقق بالتغيير الذاتي والإعداد الذاتي على السواء . . . فأما «التغيير الذاتي» فقد طرح القرآن الكريم حده الإيجابي بقوله:

﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، وطرح حده السلبي بقوله:

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. . .﴾ (الأنفال: ٥٣).

وهو تغيير يمتد إلى المساحات كافة، وسائر المكونات النفسية الأساسية: العقلية، والروحية، والجسدية، وكل العلاقات والبنى الداخلية مع الذات ومع الآخرين، والتي تمكن الإنسان المسلم والجماعة المسلمة من مواجهة حركة التاريخ . . .

إن تأكيد الإسلام على قانون (التغيير) يعني أنه يمنح الإرادة البشرية المؤمنة فرصتها في صياغة المصير، في التشبث به أو استعادته إذا ما أفلت من بين يديها . . ومن ثم فإنه ما إن تتهيأ هذه الإرادة للعمل عن طريق الشحذ النفسي، والاستعداد الروحي والعقلي والأخلاقي والجسدي ـ كذلك ـ حتى تكون قادرة على مواجهة التحديات من أي نوع كانت، وبأي درجة جاءت، فتعجنها وتصوغها من جديد لصالح الإنسان؛ وهكذا يعود الإنسان ـ في المنظور الإسلامي ـ لينتصر على التحديات، وليستعيد قدرته الأبدية على التجدّد والتطور والإبداع . .

وليس ثمة ما يقف في طريق امتلاك ناصية التغيير الذاتي، كالرؤية التجزيئية أو الموقف النصفي!!

لقد فهم كثير من المسلمين عملية التغيير فهماً خاطئاً، وتصوروها مجرد تجديد للتوثب الروحي، أو إعادة التزام بحشد من القيم الخلقية، أو السلوكية التي دعا إليها الإسلام . .

وسنقع في الخطأ نفسه لو قلنا: إن الحلّ يكمن «فقط» في إعادة تشكيل العقل المسلم . . .

إن التغيير الذاتي عملية شاملة تغطي الطاقات البشرية كافة: عقلية وروحية وأخلاقية وسلوكية وجسدية . . وأي تجزيء في الرؤية، أو الموقف، يقتل المحاولة في المهد . . . ولكننا بتأكيدنا على التشكل، أو التغيير العقلي، إنما نعتمد ضرورة منهجية تضع في الاعتبار، دوماً، سلّماً للأولويات، فتبدأ بالأهم فالمهم فالأقل أهمية . . ولما كان التركيز في عملية التغيير قد انصبّ في معظمه على الجوانب الأخرىٰ، بعيداً عن العقل، ولما كانت عملية إعادة التشكل العقلي ضرورة قصوى وشرطاً حاسماً لاستكمال عملية التغيير، كان وقوفنا عندها طويلاً في هذا البحث . . بل كان هذا البحث بمثابة عرض وتحليل لهذه المعضلة بالذات . .

مرة أخرى . . فإن التغيير الذاتي بمنظوره الشامل، وبوضعيته المركبة، وجهده المتعدد . . هو أحد مفتاحين لابدّ منهما للتحقّق بالقوة والفاعلية والخلاص . . .

فأما المفتاح الثاني فهو «الإعداد الذاتي» . . .

وإذا كان «التغيير» ينصب على الذات المسلمة في إطارها الفردي بالدرجة الأولى، لكي ينسحب ـ من ثم ـ على الجماعة فيمكن لها في الأرض فإن «الإعداد» ينصبّ على الجماعة المسلمة بالدرجة الأولى لكي يحمي ـــ من ثم ـــ الذات المؤمنة من الحصار والتضييق في العالم.. والقرآن الكريم يقولها بصراحة، وبالتعبير ونفسه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللهُ يَعْلَمُهُمْ. . .﴾ (الأنفال: ٦٠).

ولن يتحقق الإعداد المطلوب إن لم تستجش طاقات الإنسان المسلم كافة، ويعاد تشكيل عقله، كما أراد له الإسلام أن يكون، ليتمكن من أداء دوره في هذه المهمة الكبيرة، معتمداً على العلم الحديث أداة للتحقّق بسياج القوة التي ترهب الأعداء وتمكن للأمة الإسلامية في الأرض. .

والعلم الحديث ليس مارداً كافراً لكي نتبرأ منه وندعو لحربه، ولكنه أداة حيادية يمكن أن نوظفها لخدمة ديننا وتعزيز عقيدتنا. . .

والعلم الحديث ليس ابن الحضارة الغربية وحدها، لكي نتردد في احتضانه وتنشئته. . . ولكنه تمخض أبدي لتراكم في الخبرة

البشرية، وحضارات شتىٰ أسهمت بها معظم شعوب الأرض الحية.. وكان لحضارة الإسلام نصيب وافرٌ في وضع دعائمه، وتصحيح مناهجه، وطرح الكثير من معطياته...

وقد تكلمنا عن موقف الإسلام من العلم الحديث في غير هذا المكان [كتاب «مدخل إلى موقف القرآن من العلم»]، ولن يتسع المجال هنا لطرح ما قلناه هناك، والنتيجة التي يطمئن إليها الإنسان، إزاء المسألة، وبإيجاز شديد، أن معطيات القرآن الكريم قد امتدت لكي تشمل أطراف العلم جميعاً، فتعالجها وتنير لها الطريق، وتبرمج لمناهجها، وتقدم طرفاً من كشوفها ونتائجها: الفلسفة «أو الأهداف»، والمنهج، والحقائق والتطبيقات....

إننا نجد العديد من المبادىء الأساسية للحياة الإسلامية التي تحدثنا عن بعض جوانبها، من مثل الاستخلاف والتسخير والتوازن والارتباط المحتوم بين معجزة الخلق ووجود الخالق... لا يمكن تنفيذها وتعزيزها، وتعميق معطياتها في العالم دون اعتماد العلم أداةً لتحقيق هذه الأهداف.. كأسلوب أو برنامج عمل لخدمة التصور الإسلامي الذي يقوم على هذه الأسس.

ونجد القرآن الكريم يطرح، لأول مرة، كما سبق وأن مرّ بنا في سياق هذا البحث، منهجاً حسيّاً تجريبياً للنشاط المعرفي، هو نفسه الذي يعتمده اليوم العلم الحديث...

هـذا إلى أن القرآن الكـريم طـرح حشـداً من الحقـائق والكشـوف العلميـة في ميـادين شتى، وخـاصـة الفلك والـطبيعـة والجغرافية والطب والنفس. . . إلى آخره، جـاءت معطيـات العلم الحديث لكي تؤكدها وتزيدها إيضاحاً. . مصداقاً لقوله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ. . .﴾ (يونس: ٣٩)، ولقوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ (فصلت: ٥٣). أما التطبيقات «التقنيَّة» التي تتمخض في نهاية الأمر عن منهج العلم وحقائقه النظرية الصرفة. . فإن للقـرآن الكريم كلمتـه فيها هي الأخرى. . . وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى. . إذ ما علاقة كتاب الله «بالتكنولوجيا» وهي نتاج يتميز بالجدة والحداثـة لمعطيـات العلم في شوط متأخر من مسيرته الطويلة؟!

ولكن الدهشة تزول إذا عرفنا جيداً أن القـرآن الكريم قـالها صراحة، وفي أكثر من موضع. . وأنها تواترت فيه حتى بلغت مرتبـة اليقـين. . ولكن أين الآذان التي تسمـع، والعيـون الـتي تبصر، والعقول التي تتدبر وتفكر وترىٰ؟

وإذْ كان هذا الجانب من العلم الحديث يرتبط أشد الارتبـاط بما نحن بصدده من التحقق الإسلامي بالقوة، ومن الدعـوة إلى قيام

عصر «التكنولوجيا الإسلامية»، وتشكيل المجتمع الإسلامي التقني. . فسوف نقف عنده بعض الشيء في ختام رحلتنا هذه مع «إعادة تشكيل العقل المسلم»، رغم أننا كنا قد وقفنا عنده بمزيد من التفاصيل في أكثر من كتاب. . . [«التفسير الإسلامي للتاريخ» و«آفاق قرآنية» و«مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم»]. إننا نطالع في القرآن الكريم هذه الآيات:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ، أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وقليل مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٠ ـ ١٣)، وفي مقطع آخر نجده في سورة (ص: ١٧ ـ ٢٠). . نقرأ، تأكيداً واستكمالاً للموقف:

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ، إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ، وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾، ثم تعود الآيات تتحدث عن سليمان كرة أخرى:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرِ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي

إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ، فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ، هٰذَا عَطَاؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص: ٣٥ـــ٣٩).

إننا هنا نلتقي باثنين من عباد الله المصطفين،داود وسليمان عليهما السلام، وقد سخّرت لهما قوىٰ الطبيعة الهائلة والطاقات الغيبية التي لا يحدُّها جدار زماني أو حاجز مكاني، سخرت جميعاً لكي تعمل تحت إمرة الإنسان، المؤمن المسؤول: الجياد، الطير، الحديد، الريح، القطر «النفط».. في عدد مشار إليه من مساحات العمل «التقني» التطبيقي: صناعة وعمراناً وبناءً وفنوناً.. وتثير عجبنا في ميدان هذا النشاط تلك الإشارات الواضحة إلى الحديد والوقود، اللذين قد تبين لنا في قرننا العشرين هذا، كم هما ضروريان أساسيان للحضارة المعاصرة، ولكل حضارة تريد أن تعمر وتصنع وتبني وتتفنن وتطبق.. ويثير عجبنا كذلك أن الله سبحانه لم يمنح الحديد فحسب لداود، ولكنه يعلمه كيف يليِّنه، فبدون هذا لن تكون ثمة فائدة «صناعية»، لهذا الخام الخطير...

إننا هنا نلتقي بالإنسان المؤمن، بل بالنبي، الذي يبلغ من فهمه عن الله وشكره لنعمائه أن يمنحه خالقه هذا القدر الكبير من القوىٰ المذخورة، ويكشف له عن هذه الطاقات الطبيعية الهائلة من أجل أن يبني ويعمر ويتفنن ويبدع ويبتكر ويتقدم بالحياة صعداً

على طريق الخلافة المسؤولة، المؤمنة، الـراشدة، التي لا ينحـرف بها هذا النعيم الكبير عن التزام الموقع الصحيح في العلاقة المطلوبة بـين الله والإنسان.

وفي سورة (الحديد: ٢٥) نقرأ هذه الآية:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

سورة الحديد؟ هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها، هل ثمـة أكـثر إقناعـاً لنزعـة التحضر والإبداع والبنـاء والتـطبيق، التي جـاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيـات الإيمان وسلوكيتـه في قلب العالم، من هذه الآية التي تعرض خام الحديـد كنعمة كبـيرة أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيهـا اللذين يتمخضان دومـاً عن الحديـد: «البأس الشـديد» متمثـلاً بـاستخـدام الحـديـد كأساس للتسلح والإعداد العسكري، و«المنـافع» التقنيـة التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في مجـالات نشاطـه وبنائـه «السلمي»؟ وهل ثمة حاجة للتـأكيد عـلى الأهمية المـتزايدة للحـديد بمرور الزمن، في مسائل السلم والحرب، وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الـدولية سلماً وحـرباً؟

إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن «ترهب» أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل، وتستطيع ـ أيضاً ـ أن تخطو خطوات تقنية واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها؟!

إن كل موقف قرآني يشكل ـ ولا ريب ـ وحدة عضوية لا تنفصم عراها، يمكن أن نحظى بأبعادها وصيغتها النهائية بمجرد أن نجمع إلى بعض كل الآيات التي تغذي هذا «الموقف» وتشكل مادته الحية : في الاقتصاد، في الاجتماع، في السياسة، في التشريع، في النفس، في العلاقات الدولية، في العقائد، في الآداب، في المعاملات. . إلى آخره. . في كل قطاع من هذه القطاعات نلتقي بعدد من المواقف المتكاملة المحبكة التي تصنعها وتصورها وتمنحها صيغتها النهائية مجموعة من الآيات والمقاطع المنبثة في ثنايا القرآن.

والآن ونحن نتكلم عن الحديد نلتقي بسورة كاملة بهذا الاسم، ونتذكر في الوقت نفسه الآيات التي مرت بنا قبل قليل من سورة «سبأ» تلك التي تذكر نعمة الله على داود عليه السلام بتسييل الحديد!!، وهي بصدد الحديث عن الإعمار والبناء والتصنيع، ونتذكر أيضاً «ذا القرنين» وهو ينادي الجماعة المضطهدة لكي يحميها من الغزاة :

﴿آتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ، حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً، فَمَا ٱسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ (الكهف : ٩٦ - ٩٧).

وتفرض آية أخرى نفسها لإتمام المسألة، تلك التي تنادي الجماعة الإسلامية :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللهُ يَعْلَمُهُمْ. . .﴾ (الأنفال : ٦٠).

لكن ما يلبث الإنسان المسلم والجماعة المسلمة أن يعتمدوا الحديد، هذا الخام الخطير المذكور في عدد من المواضع، والذي سميت إحدى السور باسمه، مادة أساسية لإعداد «القوة» وإرهاب الأعداء في عالم يضيع فيه ويداس من لا يملك القدرة على إرهاب أعدائه، هذه القدرة التي ترتبط دوماً بمدى التقدم التقني «التكنولوجي» ارتباطاً عضوياً، وتسير معه في المنحنيات نفسها التي يجتازها في أغلب الأحيان.

إننا يجب أن نلتفت ـ هنا ـ إلى ذلك التداخل والارتباط الصميمين، في آية الحديد، بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس، وبين إنزال

الحديد الذي يحمل في طياته «البأس»، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. . إنها العقيدة التي تعرف كيف تشد الإنسان إلى أعماق الأرض، وتدفعه إلى التنقيب فيها من أجل إعمارها وحمايتها. . وإن المسلم لن تحميه وتنصره إلاّ يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والتقدم والنصر. . وإنه ـ بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحركة الجهاد الدائمة، ويختار ـ بدلاً من ذلك ـ مواقع الفرار والانتظار الاتكالي لمعونة الله، فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته وسوف يهزم لا محال ما دام قد أشاح عن هذا النداء القرآني الذي يكاد يصرخ بأعلى نبرة أنه بدون الاعتماد الواعي، المسؤول، الخبير، على مصادر القوة والبأس فلن يكون هناك «نصر» ولا «تقدم» ولا «حماية» للموازين والقيم العادلة التي جاء الدين لتنفيذها في الأرض، حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم في المساجد، السنين الطوال، يبكون ويتضرعون.

إن الدعوة لقيام مجتمع إسلامي «تكنولوجي»، وبدء عصر «تكنولوجيا إسلامية»، إنما هو استمرار طبيعي لموقف الإسلام المفتوح من معطيات العلم في آفاقه، واستكمالاً للدعوة إلى إعادة تشكيل العقل الإسلامي من أجل أن يكون أكثر قدرة على استيعاب المتغيرات وتطوير الحياة الإسلامية وحمايتها ـ في الوقت نفسه ـ من التفكك والعدوان.

إن «التكنولوجيا الإسلامية»، التي ترتبط ـ بطبيعة الحال ـ بخلفيّتها الإيمانية، تعدّ «ضرورة» ملحة ليس فقط على مستوى الجماعة الإسلامية نفسها، ولكن على مستوى البشرية عامة.. لأنها ستعرف كيف تتحرك، وتنضبط على هدى القيم الدينية والإنسانية القادمة من عند الله، فتكون حقاً في خدمة «الإنسان» الذي عانى الكثير من تكنولوجيا الكفر، والعرقية، والأنانية، والعصيان.

إن على العقل المسلم الجديد أن يأخذ بتلابيب الطاقة التي كشف عنها النقاب، والقوانين العلمية التي تحيل الطاقة إلى حركة وفعل وتطبيق وإبداع.. أن يمسك برقبة الزمن فيضيفه إلى المادة لتحقيق اللحاق بمسيرة الخصم، والسبق عليه، ما دامت قيم هذا الدين تؤكد بإلحاح على فكرة الزمن، وعلى أن المؤمن الحق هو الذي يعرف كيف «يسارع» وكيف «يسبق»!!!

وسواء شئنا أم أبينا، فنحن ـ أولاً وأخيراً ـ مسؤولون عن هزائمنا العقيدية، وانحطاطنا السياسي، وتخلفنا الحضاري.. ومرفوضة كل محاولة تسعى إلى اتخاذ ممارسات الأمم والجماعات الأخرى مشجباً لتعليق هذه الهزائم وتبريرها.. ولن ينقذنا إلاّ فعلنا الخاص، ولن يعيدنا إلى موقعنا المتقدم إلاّ تحملنا الكامل لمسؤوليتنا..

إن القرآن الكريم يؤكد في أكثر من موضع على أن أية أمة،

مؤمنة كانت أم غير مؤمنة، إنما تحمل مسؤوليتها كاملة إزاء نفسها، أمام الله ثم أمام التاريخ، ولن تحمل أبداً تبعة أمة أخرى إلاّ بالقدر الذي تفرضه عليها مسؤوليتها ذاتها تجاه الإنسان والعالم. فكما أنه على المستوى الفردي يؤكد الإسلام مسؤولية الإنسان عن أفعاله فحسب، فكذلك الحال على مستوى الأمم والجماعات :

﴿لاَ يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ. . . .﴾ (البقرة : ٢٨٦)

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة : ١٤١).

ومن قبل تساءل المسلمون الذين انهزموا في معركة «أحد» عن سبب هزيمتهم غير المتوقعة تلك. . فأجابتهم كلمات الله :
﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران : ١٦٥). . .

والمفاتيح «عندنا» أولاً وأخيراً، فإن لم نصل إلى اليوم الذي نبني فيه «مختبراتنا» ونشغّلها بعقولنا.. ونصنع سلاحنا ونستخدمه بأيدينا. . إن لم نُعِد تشكيل عقولنا لكي «تعمل» كما أراد لها الإسلام أن تعمل. . فلن تكون لنا خارطة أو مكان في هذا العالم، ولن

يكون بمقدور ألف سنة أخرى من الاتكالية وصور التعبّد والذكر القائمة أن تصنع المعجزة!!!!

ذلك هو التحدّي الحقيقي الذي يقف قبالتنا صباح مساء.. وهذا هو طريق الاستجابة المرسوم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

هذا هو الجواب.

قائمة بأهم المؤلفات المنشورة
للدكتور عماد الدين خليل

(أ) المؤلفات التاريخية

(١) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م.

(٢) عماد الدين زنكي ــ الدار العلمية ــ بيروت ــ ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م.

(٣) دراسة في السيرة ــ مؤسسة الرسالة ــ ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م.

(٤) نور الدين محمود: الرجل والتجربة ــ دار القلم ــ دمشق ــ ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م.

(٥) الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م

(٦) في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م.

(٧) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل ــ مكتبة المعارف ــ الرياض ــ ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م.

(٨) حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ــ دار الثقافة ــ الدوحة ــ ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م.

(٩) ابن خلدون إسلاميًا ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.

(١٠) دراسات تاريخية ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.

(١١) التفسير الإسلامي للتاريخ ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.

(ب) المؤلفات الإسلامية

(١) مقال في العدل الاجتماعي ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م

(٣) آفاق قرآنية ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م.
(٤) العلم في مواجهة المادية ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.
(٥) مدخل إلى موقف القرآن من العلم الحديث ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م.
(٦) حول إعادة تشكيل العقل المسلم ــ كتاب الأمة ــ الدوحة ــ ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.
(٧) مؤشرات إسلامية في زمن السرعة ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.
(٨) حوار في المعمار الكوني ــ دار الثقافة ــ الدوحة ــ ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.
(٩) في الرؤية الإسلامية ــ دار الثقافة ــ الدوحة ــ ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م.

(ج) المؤلفات الأدبية / الدراسات

(١) في النقد الإسلامي العاصر ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م.
(٢) فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م.
(٣) الطبيعة في الفن الغربي الإسلامي ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م.
(٤) محاولات جديدة في النقد الإسلامي ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م.
(٥) مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.

(د) المؤلفات الأدبية: الأعمال الإبداعية

(١) المأسورون (مسرحية) ــ دار الإرشاد ــ بيروت ــ ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م.
(٢) جداول الحب واليقين (شعر) ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م.

(٣) معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد) ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م.
(٤) خمس مسرحيات إسلامية (مسرحيات ذات فصل واحد) ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م.
(٥) الإعصار والمئذنة (رواية) ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.
(٦) المغول (مسرحية) ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.
(٧) العبور (مسرحيات ذات فصل واحد) ــ دار المنارة ــ جدة ــ ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م.

(هـ) **البحوث والمقالات التاريخية المنشورة في مجلة «المسلم المعاصر».**

(١) «في التفسير الإسلامي للتاريخ ــ الصراع ودوره في الحركة الحضارية».
س١: ع الافتتاحي (١٠/١٣٩٤هـ) ص٦٦ــ٨٥.
س١: ع١، ٢ (٤/١٣٩٥هـ) ص٩ــ٤٠.
(٢) «مؤشرات حول مشروع تاريخ العرب والإسلام».
س٣: ع١١ (٧/١٣٩٧هـ) ص١٢٣ــ١٣٦.
(٤) «دعوة إلى رفض الاستسلام لمصادرنا التاريخية ــ ملاحظات في النقد التاريخي».
س٨: ع٣٠ (٥/١٤٠٢هـ) ص١١ــ٢٦.
(٥) «حول إسلامية تفسير ابن خلدون للتاريخ»
س٨ ع٣٢ (١٠/١٤٠٢هـ) ص٢٥ــ٥٠.
(٦) «قائمة: في التاريخ والحضارة الإسلامية ــ دليل الأطروحات المقترحة»
س١٤: ع٥٣ (١/١٤٠٩هـ) ص١٧٣ــ١٧٤.

إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

أولاً ـ سلسلة إسلامية المعرفة.

- إسلامية المعرفة: المبادئ وخطة العمل، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- الوجيز في إسلامية المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل مع أوراق العمل لمؤتمرات الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. أعيد طبعه في المغرب والأردن والجزائر. (الطبعة الثانية ستصدر قريبًا)
- نحو نظام نقدي عادل، للدكتور محمد عمر شابرا، ترجمه عن الإنجليزية سيد محمد سكر، وراجعه الدكتور رفيق المصري، الكتاب الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة)، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- نحو علم الإنسان الإسلامي، للدكتور أكبر صلاح الدين أحمد، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد الغني خلف الله، الطبعة الأولى، (دار البشير/ عمان الأردن) ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- منظمة المؤتمر الإسلامي، للدكتور عبدالله الأحسن، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد العزيز الفائز، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- تراثنا الفكري، للشيخ محمد الغزالي، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- مدخل إلى إسلامية المعرفة: مع مخطط لإسلامية علم التاريخ، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- إصلاح الفكر الإسلامي، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

ثانيًا ـ سلسلة إسلامية الثقافة:

- دليل مكتبة الأسرة المسلمة، خطة وإشراف الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، (الطبعة الثانية المنقحة ستصدر قريبًا).
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، للدكتور يوسف القرضاوي (بإذن من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر)، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

ثالثًا ـ سلسلة قضايا الفكر الإسلامي.

- حجية السنة، للشيخ عبد الغني عبد الخالق، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، (والطبعة الثانية ستصدر قريبًا).

- أدب الاختلاف في الإسلام، للدكتور طه جابر العلواني، (بإذن من رئاسة المحاكم الشرعية ـ بقطر)، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- الإسلام والتنمية الاجتماعية، للدكتور محسن عبد الحميد، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم وضوابط، للدكتور يوسف القرضاوي، الطبعة الثانية ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- كيف نتعامل مع القرآن: مدارسة مع الشيخ محمد الغزالي، أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، للأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

رابعًا ـ سلسلة المنهجية الإسلامية:

- أزمة العقل المسلم، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية: أعمال المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي، الجزء الأول: المعرفة والمنهجية ، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- معالم المنهج الإسلامي، للدكتور محمد عمارة، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

خامسًا ـ سلسلة أبحاث علمية:

- أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- التفكر من المشاهدة إلى الشهود، للدكتور مالك بدري، الطبعة الأولى (دار الوفاء ـ القاهرة، مصر)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

سادسًا ـ سلسلة المحاضرات:

- الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات علاج، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

سابعًا ـ سلسلة رسائل إسلامية المعرفة:

- خواطر في الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث، للأستاذ محمد المبارك، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- الأسس الإسلامية للعلم، (مترجمًا عن الانجليزية)، للدكتور محمد معين صديقي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- صياغة العلوم صياغة إسلامية، للدكتور اسماعيل الفاروقي الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، للدكتور زغلول راغب النجار، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

ثامنًا ــ سلسلة الرسائل الجامعية:

- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، للأستاذ أحمد الريسوني ، الطبعة الأولى، دار الأمان ــ المغرب، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- الخطاب العربي المعاصر: قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة (١٩٧٨ــ١٩٨٧)، للأستاذ فادي إسماعيل، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، للدكتور محمد محمد إمزيان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

تاسعًا ــ سلسلة الأدلة والكشافات:

- الكشاف الاقتصادي لآيات القرآن الكريم، للأستاذ محي الدين عطية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

الموزعون المعتمدون لمنشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

في شمال أمريكا:

المكتب العربي المتحد

United Arab Bureau
P.O. Box 4059
Alexandria, VA 22303, U.S.A.
Tel: (703) 329-6333
Fax: (703) 329-8052

خدمات الكتاب الإسلامي

Islamic Book Service
10900 W. Washington St
Indianapolis, IN 46231 U.S.A.
Tel: (317) 839-9248
Fax: (317) 839-2511

في أوربا:

المؤسسة الإسلامية

The Islamic Foundation
Markfield Da'wah Centre, Ruby Lane
Markfield, Leicester LE6 ORN, U.K.
Tel: (44-530) 244—944 / 45
Fax: (44-530) 244-946

خدمات الاعلام الإسلامي

Muslim Information Services
233 Seven Sister Rd.
London N4 2DA, U.K.
Tel: (44-71) 272-5170
Fax: (44-71) 272-3214

المملكة العربية السعودية:

الدار العالمية للكتاب الاسلامي
ص. ب. ٥٥١٩٥ الرياض ١١٥٣٤
تليفون 0818-465-1 (966)
فاكس 3489-463-1 (966)

مصر:

المعهد العالمي للفكر الاسلامي
٢٦ ـ ب شارع الجزيرة الوسطى
الزمالك ـ القاهرة
تليفون 9520-340 (202)
فاكس 9520-340 (202)

الأردن:

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
ص. ب ٩٤٨٩
عمان ـ المملكة الأردنية
تليفون 962-6-639992
الفاكس 962-6-611420

المغرب:

دار الأمان للنشر والتوزيع
4، زنقة المامونية
الرباط ـ المغرب
تليفون 723276 (7-212)

لبنان:

المكتب العربي المتحد
ص.ب 135888 بيروت
تيلفون 807779
تيلكس 21665LE

الهند:

Genuine Publications & Media (Pvt.) Ltd
Vateg Building, Nizamuddin West
New Delhi—100 013
Tel: (91-11) 684-7575
(91-11) 684-6256

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة أنشئت وسجلت في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) لتعمل على:

- توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكليات والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.
- استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.
- إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانيّة وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل عديدة منها:

- عقد المؤتمرات والندوات العلميّة والفكريّة المتخصصة.
- دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ونشر الإنتاج العلمي المتميز.
- توجيه الدراسات العلميّة والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والمعرفة.

وللمعهد عدد من المكاتب والفروع في كثير من العواصم العربية والإسلامية وغيرها يمارس من خلالها أنشطته المختلفة، كما أن له اتفاقات للتعاون العلمي المشترك مع عدد من الجامعات العربية الإسلامية والغربيّة وغيرها في مختلف أنحاء العالم.

The International Institute of Islamic Thought
555 Grove Street (P.O. Box 669)
Herndon, VA 22070-4705 U.S.A
Tel: (703) 471-1133
Fax: (703) 471-3922
Telex: 901153 IIIT WASH



هذا الكتاب

تشخيص لما أصاب العقل المسلم وما صده عن المضي في الدرب إلى غايته. وبيان للمرض الذي أدى إلى عقمه بعد التوهج والإبداع اللذين أشعل فتيلهما كتاب الله وتعاليم رسوله ﷺ.

وهو تأكيد على ضرورة إعادة تشكيل العقل المسلم مع عدم التقليل من شأن العوامل الأخرى، فالإنسان وحدة ونسيج متشابك الخيوط لا يمكن التعامل معه بتفكيكه وتمزيقه وانتقاء أجزاء منه دون أجزاء. وليس ثمة ما يحول دون التغيير كالرؤية التجزيئية والموقف النصفي.

والكتاب محاولة لتصحيح الفهم الخاطىء لكثير من المسلمين لعملية التغيير، والقصور في تصورها بكونها مجرد تجديد للتوثب الروحي أو إعادة التزام بحشد من القيم الخلقية أو السلوكية التي دعا إليها الاسلام.

إنه دعوة إلى أعادة تشكيل عقل الأمة الإسلامية، وبناء عالم أفكارها وترميم نسقها الثقافي. وهو بذلك إسهام ثري في قضية «العقل المسلم» ، تلك القضية التي غابت طويلاً عن وعي الأمة وآن لها أن تثار ويسهم فيها المبدعون من العلماء والمفكرين.